مجلة علم النفس

مجلد ٧ — يوليو — سبتمبر ١٩٥١ — عدد ١

رئيسا التحرير

يوسف مراد
دكتور فى الآداب
أستاذ علم النفس بجامعة فؤاد الأول

مصطفى زيور
دكتور فى الطب
أستاذ علم النفس بجامعة فاروق الأول

صفحة

الآباء المشكلون ... ... الدكتور مصطفى زيور ٣
الأسرة ووظيفتها الأخلاقية ... ... الدكتور عبد العزيز عزت ١٣
أثر علاقة الطفل بوالديه فى زواجه ... ... كمال الدين عبد الحميد تابل ٢٥
سيكوباثولوجيا السحر والتطير ... ... نجيب يوسف بدوى ٣٥
أثر اللاشعور فى علاقة الآباء بالأبناء ... ... فائزة على كامل ٦١
النظرية الجشطلتية ... ... مصطفى سويف ٧٣
موقف التحليل النفسى فى الوقت الحاضر ... ... الدكتور فلوجل ٨٥
فقدان الشعور المصحوب بسلوك اندفاعى لا إرادى ... ... عبد المنعم المليجى ٩٧
باب المجلات والدوريات : تأويل جديد لمسرحية هاملت ١٠٢

القسم الافرنجى

المنشأ النفسى للمظاهر الجسمية ... ... الدكتور مصطفى زيور ١١٨
علم جديد : علم الرموز ... ... الدكتور مورو سير ١٢٨

الثمن ٢٠ ص

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

جماعة علم النفس التكاملي

المشمولة برعاية حضرة صاحب السعادة إلهامي حسين باشا

مجلة علم النفس

رئيسا التحرير

يوسف مراد
دكتور في الآداب
أستاذ علم النفس بجامعة فؤاد الأول

مصطفى زيور
دكتور في الطب
أستاذ علم النفس بجامعة فاروق الأول

السنة السابعة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢

تصدر المجلة ثلاث مرات في السنة
في منتصف
يونيو وأكتوبر وفبراير

الإدارة : شارع الأميرة فاديه ـ مدينة الأوقاف ـ منطقة هـ ـ العجوزة مصر
ت : ٧٨٦٤٢

دار المعارف بمصر

مجلة علم النفس

مجلد ٧ | يونيو — سبتمبر ١٩٥١ | عدد ١

الآباء المشكلون

بقلم

الدكتور مصطفى زيور

إنى إذ أتحدث عن الآباء المشكلين أمام جمع من الآباء ومن هم كالآباء أعنى المربين ، أضع نفسى فى مركز حرج . ذلك أن عنوان الحديث يتضمن اتهاماً . ولكنى أيضاً أب ومرب . فإن كان ثمة اتهام فسيرتد إلى بدورى . ثم إن خبرتى فى تعليم التحليل النفسى كشفت لى عن حقيقة فريدة . ذلك أنى لمست فى تلاميذى فهماً يكاد يكون كاملا للتحليل النفسى . وتبين لى أنهم إذ يعرضون معلوماتهم فى التحليل النفسى إنما يصدرون عن مبدأ لا شعورى وكان الواحد منهم يقول : « إن كل أمور التحليل النفسى صادقة إلا أنها لا تنطبق علىّ أنا بل على غيرى فحسب . »

وعليه أعتقد أننى لن أغضبكم كثيراً فبوسع كل منكم أن يقول لنفسه : « لست أنا الوالد المشكل »

علىّ الآن أن أفصح بإيجاز عما أقصده بعنوان ذلك الحديث : «الآباء المشكلون» درج المربون والآباء على أن يتحدثوا عن « أطفال مشكلين » . ولكن يجيء اليوم التحليل النفسى ، ذلك العلم الذى قلب كثيراً من معارفنا عن الطبيعة الإنسانية ، والذى يطبق الحكمة القائلة « إن أنت لم تتوقع ما لا ينتظر ، فلن تهتدى إلى الحقيقة »

يجيء إذن التحليل النفسى ليبين لنا أنه لا يوجد فى حقيقة الأمر أطفال مشكلون ، وإنما يوجد آباء مشكلون فحسب .

لقد كان الطب العقلى الوصفى فى مطلع هذا القرن أكثر قبولا لدى الآباء . كلما بدر من الطفل شذوذ فى النمو أو انحراف فى السلوك ، حسب ذلك على الوراثة . والوراثة فكرة لاشخصية يتقاسمها الأجداد من الناحيتين لحسن الطالع ، ولذلك لم يكن للمسئولية الشخصية وجودعملى. أما التحليل النفسى فلا يمكن أن يصادف قبولا هـــذا شأنه من جانب الآباء ما دام يؤكد التأثير المباشر للآباء فى أبنائهم ، أى نوعاً آخر من الوراثة يمكن أن نسميه وراثة سيكولوجية .

ولنأخذ مثلا إكلينيكياً لتوضيح مقصدنا .

سيدة فى مقتبل العمر تشكو إلى المحلل أن ابنتها الصغيرة وعمرها ثلاثة أعوام ونصف فى منتهى العصبية ، وأن الأحلام المزعجة تنتابها ليلا والمخاوف التى لا مبرر لها تعاودها نهاراً . والطفلة حسب رواية أمها معتلة ، بطيئة النمو متقلبة الشهية . فحصت الطفلة فحصاً كاملا فلم يكن ثمة شيء غير عادى إلا الشعور برهبة وتهيب غير مألوف . فلم يكن مناص من أن نلتمس عند الأم السبب الحقيق لتلك الاضطرابات . أنهت إلينا الأم أنها مضطرة نظراً لاعتلال صحة ابنتها ، إلى إحاطتها بعناية فائقة . فلا بد من غسلها مرتين أو ثلاث مرات فى اليوم ، وأخذ درجة حرارتها بانتظام ، ولفها فى ملابس دافئة ، وتغليق الأبواب والنوافذ درءاً لخطر البرد ؛ وفى كل يوم تغسل دمى الطفلة بالكحول وتنهاها عن اللهو مع غيرها من الأقران تجنباً للعدوى . أما عن التغذية ، فهى حريصة على أن تنفذ تعليمات الطبيب بكل حذر : فتتناول الطفلة وجباتها فى مواعيد محددة ، وبمقادير مقننة بعد أن تبتلع ملعقة من الأدوية المقـــوية التى تشتمل على مجموعة فيتامينات ا . ب . حـ . . . الخ .

ولا يسع لمحلل الخبير إلا أن يشتم من سلوك هذا شأنه من جانب الأم ذلك الاتجاه الذى نسميه « تعويضاً مغالياً » ، أى اتجاهاً يخفى ضده . فما المغالاة فى العناية إلا رد فعل لعدوان لا شعورى . وإليكم الدليل :

أنهت إلينا هذه السيدة الشابة أنها تزوجت بعد حب ، على الرغم من أن زوجها يكبرها بكثير . وقد ظلت تنعم بالسعادة طوال الأعوام الثلاثة الأولى من زواجها ؛ فقد غمرها زوجها بكل حب وحنان ، وعند ما أعرب لها هذا عن رغبته فى إنجاب طفل ، لم ترحب بالفكرة بادئ ذى بدء ؛ فقد كانت تستشعر السعادة إلى حد أنها لم ترد أن تتعرض لما من شأنه أن يعكر صفو هناءتها . ولكن غير أنها اضطرت فى نهاية الأمر إلى أن تذعن لرغبة زوجها . وكان أن احتملت حملها فى غضاضة وما ونت تعرب عن خشيتها أن يأتى الوليد الجديد ليشاركها حب زوجها . وكان طبيعياً عند ما وضعت ، أن يبدى زوجها اهتمامه الشديد بوليده ، وإزاء ذلك أحست بغيرة حقة وراودتها دوافع عدوانية صريحة ضد طفلتها . ولكن سرعان ما كُبتت هذه الدوافع التى حل محلها موقف الرعاية البالغة الذى وصفته سلفاً . وكلما أحست العـدوان ضد ابنتها ، ضاعفت الجهد فى بذل العناية ، ذلك الجهد الذى يهدف إلى كبح جماح العدوان . وسوف تفهم أن تهيب الطفلة وعصبيتها إنما هو رد فعل طبيعى لشعور الأم ذاك الذى ينطوى على الصراع . تلك حقيقة عامة ، هى أن لدى الأطفال جميعاً حدساً فريداً لحقيقة عواطف الوالدين العميقة .

أشرت منذ حين إلى الوراثة السيكولوجية . ويبين لكم المثال الذى ذكرته أن الأعراض العصابية فى الطفلة هى رد فعل طبيعى لسلوك الأم . بيد أن الوراثة السيكولوجية تمضى إلى أبعد من ذلك . فتلك الطفلة عند ما تكبر لا يسعها الخلاص من القانون الطبيعى ، قانون تقليد الأم ، أى توحيد نفسها بها . ولا شك أن تلك الأم جد طفلية ، يعوزها النضوج الوجدانى ، ما دامت قد لقيت مقدم ابنتها بشعور الغيرة كما لو كانت ابنتها هذه أختاً صغرى تأتى لتشاركها حب أبيها . قد يبدو ذلك عجيباً ، ولكن الواقع أن زوج هذه السيدة الشابة هو « لا شعورياً » بمثابة أبيها . وهكذا ندرك سلوكها ، وندرك كذلك أنه لن يكون يسيراً على ابنتها أن تتجاوز إذا ما كبرت هذا اللون الطفلى من الحب لدى المرأة حيث يحتل الزوج من نفسها — لا شعورياً — مقام الأب فتتطلب منه ما تتطلبه الطفلة الصغيرة من أبيها ، وتسلك إزاءه مسلك الابنة من أبيها لا مسلك الزوجة الناضجة من زوجها . فكأنها من الناحية العاطفية طفلة صغيرة وإن كانت من حيث الجسم والذكاء مكتملة النمو . وهكذا ندرك أن طفلة هذه أمها ، لا يمكن أن تبلغ فى مستقبل حياتها

مرحلة الحب الراشد ، ذلك الحب الذى ترتضى الزوجة فيه أن تؤدى دوراً غير دور الطفلة التى تبتغى عطفاً أبوياً ، ما دامت تفتقر إلى أم ناضجة تقتدى بها .

أيعنى ذلك أن ثمت أنواعاً للحب ؟ أجل ثمة نوعان لا بد من التمييز بينهما جيداً. وكى نفهم الفرق بين نوعى الحب أطلب منكم أن تتمثلوا موقف الطفل من والديه من ناحية ، وموقف الوالدين من طفلهما من ناحية أخرى . الأول ، موقف من يتلقى ؛ فالطفل يحب والديه لأن به حاجة حيوية إلى أن يحوطاه بعنايتهما ؛ هو محتاج كى ينمو إلى أن يتلقى ؛ فحبه أساساً حب أنانى ، أو هو بالتعبير الفنى فى التحليل النفسى ، حب نرجسى ، وعلى العكس من ذلك حب الوالد المتزن ، لابنه ، حب جواد ، حب يبذل ويمنح . وحيث أن الوالد لم تعد به حاجة إلى أن ينمو أو يجمع الطاقة ، فإن حبه حب يبذل ، أو هو كما يقال فى التحليل النفسى حب موضوعى ، أعنى أنه حب يوجه حقيقة إلى موضوع خارجى . والحب الموضوعى هو حب النضوج : والذى يملك بوفرة يهب طواعية .

ولا نستطيع فى هذا المقام أن نعرض بالتفصيل جميع الدقائق السيكولوجية التى تميز الحب الموضوعى ، حب الراشد الناضج سيكولوجياً ، من الحب النرجسى الحب المتقبل الذى ليس موضوعه فى نهاية التحليل سوى الشخص ذاته ، والذى تتميز به المرحلة الطفلية . ويكفى فى هذا المقام أن نقرر أن كثيراً من الناس لا يتجاوزون أبداً مرحلة الحب الطفلى المتقبل هذه ، حتى ولو بلغوا النضوج الجسمى أولئك أناس لم يبلغوا النضج السيكولوجى على الرغم من بلوغهم النضوج الجسمى . فإذا أتيح لهؤلاء أن يحبوا ، سلكوا مسلك الأطفال الذين ينتظرون الأخذ ، والذين لا يمنحون إلا بقدر ما يعنيهم ذلك على أن يستزيدوا فى الأخذ . وفى هذه الحالات يكون الطرف الآخر بمثابة الوالد . فإن كان الشخص سيدة ، كان زوجها أو حبيبها بديلا من أبيها ؛ وإن كان رجلا ، كانت زوجته بديلا من أمه . وواضح أن حباً ذلك شأنه يفضى لا محالة إلى خلافات ومتاعب . ذلك أن الطرف الآخر لن يستطيع بأى حال أن يستجيب لجميع مطالب حب طفلى هذا شأنه . ومن ثمة تنشأ مشاعر الخذلان ، والشقاء ، والاعتقاد بأن الآخر غير ودود ولا شك فى أن سلوك مثل هؤلاء الآباء يسفر حتما عن عواقب وخيمة تصيب أطفالهم . فالسيدة التى

لا تزال طفلة من الوجهة السيكولوجية لا تستطيع أن ترتضى الأمومة ؛ وهل تستطيع طفلة أن تكون طفلة وأماً فى آن واحد ! إنما أم هذا شأنها تتلمس كل ذريعة كى لا تنجب أطفالا ، أو كى ترجىء الحمل إلى حين ؛ وهذا هو السر فى أن كثيراً من الزيجات تبقى دون أطفال أو تؤخر إنجابهم إلى سن متقدمة . فلو حدث لسبب ما أن أنجبت هذه السيدة طفلا ، فإنها تسلك تماماً مسلك الطفل عند مقدم أخت صغرى أو أخ أصغر . وحيث أن الواجب يقضى أن تكون راشدة لا طفلة ، فإنها تجهد كى تخفى الموقف بكل ما فى وسعها من مشاعر عكسية . فهى حينئذ تحارب نفسها ، وتتمرد ضد ذاتها ، ومن ثمة يتضاعف توترها العصبى ، ومخاوفها ، وقلقها ؛ حتى لقد ليتملكها فى نهاية الأمر الخوف من أن تخنق ابنتها . وأيا كانت النتيجة التى يسفر عنها ذلك الصراع ، فعلى الطفلة تقع العواقب لا محالة . وقد رأينا مثال ذلك فى الحالة السالفة .

ويتعين علىّ بوصفى محللا أن أقول لكم إن حل ذلك المشكل هو علاج الأم لا الطفل .

وعلىّ الآن أن أقدم لوناً آخر من نقص النضوج الوجدانى عند الوالدين ، أعنى من الحب النرجسى . قد تعلمون قصة نرجس فى الأساطير اليونانية ، ذلك الغلام الجميل الذى شغف حباً بصورته معكوسة فى الماء . والحب النرجسى ينصب على شخص هو صورة للمحب نفسه . وأى شىء يمثل صورة الشخص ، خاصة صورته الطفلية ، أحسن من ابنه ؟ ! ولا بد أن أقول لكم إن فى حب كل أب لابنه يوجد عنصر نرجسى . ذلك أن الطفل صادر عن ذاته ، هو ذاته مصغرة ، يروق الأب أن يبذل من نفسه لها ، ويضحى من أجلها . والفرق بين حب أب متزن لابنه ، وحب أب طفلى لابنه ، هو أن الحب النرجسى فى الحالة الأولى يهيئ لحب موضوعى حق ، حيث تعيّن مصالح الطفل الحقيقية سلوك الأب ، فى حين أن الحب فى الحالة الثانية يبقى نرجسياً محضاً ، دونما قدرة فى الحقيقة على الاهتمام بالطفل فى ذاته .

ولتوضيح ذلك أذكر المثال التالى[١] :

(١) أنظر Oberndorf, *In* Psycho-Analysis To Day.

جاءت سيدة شابة تشكو من خفقان فى القلب واختناق . وتضيف أن ابنها البالغ من العمر ثلاثة أعوام اعتاد أن يقرصها ويضربها كلما قبلها زوجها فى حضرته ؛ والأعجب من ذلك أنه يضربها أيضاً كلما رفع الأب صوته متوجهاً إليها بالحديث ، أو عند ما يغضب أى شخص من أمه .

قصة هذه السيدة تفسر لنا أسباب هذا السلوك الغريب من جانب الابن . كانت الابنة المفضلة لأب مستبد . وبالرغم من أنه كان قاسياً على زوجته وجميع أفراد الأسرة ، إلا أنه كان يرضخ دائماً لرغبات ابنته . تزوجت للمرة الأولى فى سن التاسعة عشرة بشاب خشن المعاملة . ظلت محبة له حتى ليلة عرسها حين بدأت الأمور تسوء . فقد تراءى لها أن زوجها أصبح على حين غرة فظاً كريهاً . ولم يعد يروق لها أن تكون بينهما علاقة وثيقة . وما برحت تعانى آلاماً واضطرابات عصبية وأخيراً ، اتفق رأياهما على الطلاق .

وبعد ستة أشهر تزوجت رجل أعمال متقدم فى السن ، دقيق الحاشية . وعلى الرغم من أنها ظلت تنعم بصحة جيدة تماماً طوال الشهور الستة التى انقضت بين طلاقها وزواجها الثانى ، إلا أنها ما كادت تتزوج للمرة الثانية حتى اعتلت صحتها .

ولد الطفل الذى نحن بصدده بعد مضى عام على الزواج الثانى . وقد لازمت الفراش بعد الوضع سنتين كاملتين ، ظلت تشكو خلالها من كل صنف من المرض علماً بأن الكشف الطبى لم يسفر عن أى مرض عضوى . وقد دلت بعض أعراض الوسوسة على أنها آسفة على زوجها السابق الفظ ، وعلى أنها ضيقة برقة الزوج الثانى . فقد كان ذلك الأخير يفتقر إلى خصال القوة والفظاظة التى كانت تعجب بها أيما إعجاب فى والدها . وعند ما بلغ ابنها الثانية من عمره ، وأصبح فى مقدوره أن يعرب عن مشاعره تجاه والدته ، تحسنت صحة هذه وغادرت فراشها . ولا شك أنها وجدت فى علاقاتها بابنها ، تعويضاً عن فشلها فى زواجها .

وأحاديث هذه السيدة الشابة إبان الجلسات الأولى تبين فى وضوح أموراً كثيرة . لنفترض أن اسم ابنها روبرت . وفيما يلى حديثها : « إن روبرت يعرب عن

حبه بطريقة إلهية . فهو يقبلك فى عينيك ، وأنفك ، فى كل مكان . إن له لأسلوباً خاصاً . إنه حقاً عاشق صغير . فهو مشغول بى دواماً » . ثم تضيف : « تصور أن روبرت يغار إذا ما قبلنى زوجى . وفى ذات يوم بينما كان زوجى يقبلنى ارتمى روبرت على وطفق يقبلنى فى عنف وصاح قائلا : « ماما ، إلق بابا فى دورة المياه ! » ثم تضيف : « أتعلم ، إن روبرت ملك لى ، أما زوجى فغريب عنى » .

أما أسباب مهاجمة الطفل الصغير لأمه كلما رفع أبوه صوته إذ يخاطبها فيمكن تلخيصها على النحو التالى : لقد وجد هذا الطفل من أمه حباً لا حد له ، ولذلك لم يكن بوسعه أن يحتمل أى منافس . وفضلا عن ذلك ، فقد استفاد من خبراته أن الصوت إذا ارتفع أو نم عن غضب أنبأ عن عقاب وشيك . ولذلك كلما رفع شخص ما صوته إذ يحادث أمه ، دله ذلك على أنها مخطئة ، ومن ثمة كانت فى موقف من يستحق العقاب . فينتهز الفرصة ليؤلمها ، ويعاقبها على أنها لم تؤثره وحده بالحب .

عند ما نجد أنفسنا إزاء موقف هـــذا شأنه ، يجب علينا أن ندين أحد الوالدين (الأم فى هذه الحالة) . ذلك أنه إن دأب الطفل على رذالته فغالباً ما يكون ذلك نتيجة استفزاز من أحد الوالدين ، رغبة لاشعورية منه فى كسب عطف الطفل بأن يعرب له عن حبه حالما يؤنبه الآخر . وأحياناً أخرى يحاول أحد الوالدين مضايقة الآخر بأن يستثير رذالة الطفل .

وفى مثالنا ، كانت الأم تحتمل بل تشجع اعتداءات ابنها عليها . فلا بد أن فى سلوكه إرضاء لرغبة لا شعورية لدى الأم ، وإلا لوضعت حداً لذلك السلوك . وكانت تصف اعتداءاته هذه ضاحكة وفى لهجة مشبعة بالحنان . والواقع أن الأم كانت تدعو زوجها إلى أن يقتدى بابنها ، فيسلك مسلكاً عدوانياً ، إن أراد أن تحبه كما تحب ابنها . كما أن تحليل هذه السيدة الشابة يكشف عن تعلقها بأبيها ومن ثمة اتخاذها إياه مثلا أعلى لا شعورياً : أن تكون مثل أبيها ، أى رجلا فظاً عدوانياً . وعليه فإن حبها لابنها هو فى الحقيقة الأمر حب لذاتها ، كما كانت تود أن تكون : أى ولداً حازماً عدوانياً كأبيها .

والخلاصة أن السيدة فشلت فشلا ذريعاً كزوجة ، سواء فى زواجها الأول أو

الثانى . ومرجع ذلك إلى عجزها عن تأدية دور الزوجة والأم الناضجة ، من حيث هى من الناحية السيكولوجية طفلة لا تزال متعلقة بأبيها المستبد . وهكذا عند ما أنجبت ابناً نشأت علاقة شاذة بينها وبينه ، ولم يكن بد من أن يكون الابن فى هذه العلاقة مسخراً لإشباع حاجاتها الطفلية الخاصة . وواضح الأثر الوخيم لذلك فى النمو النفسى لذلك الابن .

* * *

وعلى الرغم من أننا نعلم أن جان جاك روسو أخطأ إذ اعتقد أن الطفل يولد خيّراً بفطرته ، وأن شرور شخصيته هى من تأثير بيئته العائلية ، فإننا نعلم أيضاً أن تأثير الوالدين فى تكوين الشخصية تأثير حاسم .

يكون الطفل فى مبدأ الأمر كائناً لا اجتماعياً . فهو يطالب باللذات الأنانية وليست لديه فكرة مصلحة الغير ، والتبادل معه . وهو كى يستطيع أن يصير كائناً اجتماعياً ، ويقلع عن نرجسيته ، لا بد له من عملية تحول اجتماعى ، أى لا بد له من تمرين سيكولوجى كفيل بأن يجعله يرتضى قواعد الحياة فى المجتمع . ومن ثمة فالنضج السيكولوجى هو اكتساب عادات وجدانية جديدة ، تحل محل الأنانية البدائية . يصبح الكائن الاجتماعى قادراً على أن يهتم بغيره ، ويخضع رغباته لمطالب بيئته الاجتماعية . هذا التحول رهن بالآباء والمربين . والشرط الأول لنجاح الآباء هو أن يكونوا هم أنفسهم قد تمثلوا قوانين المجتمع ، أى أن يكونوا قد بلغوا نضجاً سيكولوجياً كافياً . وإلا كان مثلنا مثل من يعين أمياً لتعليم الطفل القراءة .

وإليكم مثالا يوضح هذه الأفكار .

رجل ناهز الأربعين ، متزوج من سيدة أصغر منه سناً ، وله منها ولد . كان قبل أن يصير أباً لا قبل له بالاهتمام إلا بنفسه ، أما الآن فهو شديد العطف على ولده . هذا العطف الأبوى أشبه ما يكون بعطف أموى . وفضلا عن ذلك فقد اعترض على أن ينجب إخوة أو أخوات لذلك الابن الوحيد ، بحجة أن تحديد النسل هو أحسن طريقة لتربية ابنه تربية طيبة . وهو فى علاقاته بابنه يبعد الأم

حتى « يحتكر » عطف ابنه . وكان دائم الشجار مع زوجته إزاء أدنى إهمال من جانبها بالعناية بالولد . حتى أن ذلك الموقف من جانب الأب الذى لا يرعى غير ابنه ، أغضب زوجته التى شعرت بالخذلان فى الحصول على عطف زوجها وابنها جميعاً . ومن ثمة كان لا بد أن تكون مشاعرها نحو ابنها مشاعر عدائية . وكذلك كانت علاقات الابن بأمه على النقيض من علاقاته بأبيه . هذا الموقف الشاذ سبب لدى الطفل تشويهاً لميوله الوجدانية . ويستطيع المرء أن يتنبأ لمثل ذلك الطفل أن تحيد علاقاته الوجدانية فى المستقبل ، أعنى أن تثبت على أشخاص من نفس الجنس (ذكور) .

تحليل الأب يكشف عن ميول نرجسية عنيفة . فهو فى إعراضه عن إنجاب إخوة لابنه ، إنما يحاول أن يحقق رغبته الطفلية القديمة فى أن يكون هو نفسه وحيد أمه وبهذه الوسيلة يحقق رغبة راودته طفلا فى أن يقضى على إخوته هو وأخواته . وفى مسلكه حيال ابنه ، يتوحد بأمه هو ويدلل ابنه على نحو ما كان يتمنى أن تدلله أمه هو .

واضح من كل ما تقدم ، أن الغرض لم يكن مصلحة الابن ، بل بالأحرى حاجة الأب نفسه إلى تحقيق رغباته الطفلية . وبعبارة أخرى ، صار الابن مسرحاً تمثل عليه دوافعه القديمة وعقده الخاصة . إن سلوكاً هذا شأنه لا بد أن يكون ذا أثر سيىء جداً فى الطفل . فالطفل يشعر حدساً أن ذلك الحب الذى يؤثره به والده إنما هو حب أنانى صرف ، حب نرجسى . وحيث أن ذلك يعوق نموه السوى ، فإنه ينتهى بأن يحمل لأبيه عواطف البغض ، تلك التى يضطر إلى كبتها .

وهكذا يتعرقل نموه برمته ، من حيث أن أباه الذى كان يجب أن يكون قدوة لا يزال طفلا من الناحية الوجدانية .

وعلىّ فى النهاية أن أذكركم أن المربين هم من الأطفال بمثابة الآباء ، هم بدل منهم . فهم كوكلاء للمجتمع مهمتهم صياغة النشء صياغة اجتماعية ، غالباً ما يسلكون تحت تأثير عقدهم الشخصية . فإن سلوك الأطفال يوقظ فيهم صدى

عقدهم الطفلية . فيستجيبون لذلك بأن يقمعوا الأطفال الذين يعهد بهم إليهم ، كما لو كانوا يقمعون أنفسهم هم .

ذلك يذكرنى بإجابة معلم كنت أشرح له أفكاراً من هذا القبيل ، بصدد سلوك اثنين من تلامذته . قال : « كل ذلك جميل . طوبى لك إن كنت تؤمن به يا سيدى العزيز ، ولكن دعنى بالله على معاملتى لحسام كولد شقى وسمير كبدين كسول » .

لم يكن صاحبنا يشك أن حساماً وسميراً إنما يمثلان ميوله هو الطفلية ، تلك التى يتعين عليه أن يكبح جماحها

ويطيب لى أن أختتم هذه المحاضرة بقول هكسلى :

إعطونى أمهات خيراً من أمهات اليوم أضمن لكم عالماً خيراً من عالمنا . مضيفاً الآباء إلى الأمهات .

مصطفى زيور

الأسرة ووظيفتها الأخلاقية

بقلم

الدكتور عبد العزيز عزت

أستاذ علم الاجتماع المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد

تختلف وظيفة الأسرة الأخلاقية باختلاف تطور الأسرة ، لأن الأسرة لم تكن دائماً أبداً بالشكل الذى نراه اليوم فى الأمم الراقية ، وهو الشكل المزدوج الذى تقوم فيه الأسرة على الزوج والزوجة وأولادهما ما داموا يعيشون معهما .(١) وإنما تقدمت هذا الشكل الحديث أشكال أخرى أقدم منه . ويدل تطور هذه الأشكال على أن الأسرة ذهبت فى تطورها من الاتساع إلى الضيق وأنها كانت أكبر حجماً وأغزر كثافة من ناحية عدد أفرادها ، ثم أخذت فى الصغر حتى وصلت إلى الشكل المشار إليه . وأهم هذه الأشكال هى : الأسرة التوتمية ثم الأسرة الأبوية الكبيرة ثم الأسرة الأبوية الصغيرة ثم تأتى أخيراً الأسرة المزدوجة (٢).

وهذا التطور له أثره على وظائف الأسرة ، فهى أيضاً تطورت من الاتساع إلى الضيق فكانت متعددة فى الأشكال الاجتماعية القديمة ، والعكس صحيح بالنسبة للشكل الأخير (٣) . ولعل السبب فى تعدد هذه الوظائف قديماً فيما بين اقتصادية وتشريعية وسياسية وأخلاقية . . . الخ راجع إلى أن الأسرة كانت هيئة واحدة متشعبة النشاط الاجتماعى بينما فى المجتمعات الحديثة هى هيئة كسائر الهيئات الاجتماعية الأخرى فى المجتمع وأن هذه الهيئات سطت على وظائفها بناءً على تقدم قانون تقسيم العمل الذى يشير إليه دوركيم فى رسالته للدكتوراه ، والذى دعا إلى ارتقاء نواحى التخصص فى المجتمعات الكبيرة حتى أصبحت الوظائف المتعددة التى كانت

(١) Durkheim — Revue philosophique, Paris 1921, (Janvier-Février)., P. 2 à 4.

(٢) Davy — Sociologues d'hier et d'aujourd'hui, Paris 1931, chap. III.
وأيضاً الدكتور عبد الواحد وافى – الأسرة والمجتمع ، مصر ١٩٤٨ صفحة ١٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦ .

للأسرة من اختصاص هيئات قائمة بذاتها . فمثلا الوظيفة السياسية أصبحت للدولة ، والتشريعية للبرلمان ، والقضائية للمحاكم ، والتربوية للمدارس . . . إلخ[١] . ولم يبق للأسرة فى عهدنا الحالى إلا وظيفة أساسية واحدة هى الوظيفة الأخلاقية[٢].

ويتضح مما تقدم أن الوظيفة الأخلاقية فى الأشكال القديمة للأسرة كانت واحدة ضمن وظائف أخرى متعددة ، بينما الآن هى الوظيفة الرئيسية الظاهرة الباقية لها . فما هى طبيعة هذه الوظيفة قديماً وحديثاً ؟

خضعت الوظيفة الأخلاقية فى الأشكال القديمة للأسرة للدين[٣] ، وانحصرت فى الغالب فى نوعين من الواجبات : واجبات أساسية تمس كيان الأسرة نفسها . وواجبات أقل أهمية تتعلق بصلة الفرد بمن حوله فيها . أما عن الواجبات الأولى فيحددها دوركيم فى أربعة هى[٤] : أولا – واجب الانتقام من المعتدى على أحد أفراد الأسرة حتى تكون للأسرة هيبتها واحترامها . ثانياً – واجب احترام الملكية الجمعية فى الأسرة وعدم استغلالها استغلالا أنانياً يقصد به خدمة الصالح الخاص . والمحافظة على التركة الجمعية فيها ضد كل اعتداء . ثالثاً – واجب احترام الأسم الجمعى « Le Nous » الذى يحمله كل فرد فيها . فهو كالعلم الذى يميزه عن غيره ممن فى الأسر والعشائر الأخرى . وأن يتضامن مع أفراد أسرته لهذا السبب ، لأنهم جميعاً ينزلون من سبط أب واحد واجب تقديسه فى ذاته وفى ذاتهم أيضاً ، وهو فى العادة اسم له المسحة الدينية لأنه يمثل التوتم[٥] أحياناً وأحياناً أخرى يمثل أباً تاريخياً لا خرافياً وهذا فى الأسر الأبوية التى تقدس الأجداد[٦] . رابعاً – واجب احترام الدين فى الأسرة ، وذلك بالمساهمة الفعالة فى المواسم والأعياد والاحتفالات التى تقام فى المناسبات الدينية ، فهذه من الوسائل المهمة لربط الفرد بأسرته ، وتقوية الروح الاجتماعية عنده .

أما عن الواجبات التى تأتى فى المرتبة الثانية والخاصة بعلاقات الأفراد فى

---

(١) Durkheim — De la Division du travail social, Paris 1926, P. 184.
وأيضاً الدكتور عبد الواحد ، صفحات ٦ – ١٦ .

(٢) Durkheim — L'année Sociologique, T, I, P.P. 59 à 60.

(٣) Durkheim — L'année Sociologique, T, I, P. 2-3 + V, 82-121.

(٤) Durkheim — L'année Sociologique, I, I, P.P. 2 à 9, 39 à 40, 59 à 60.

(٥) Durkheim — L.A.S. I, I, P.P. 2 à 3.

(٦) Richard — La femme dans l'histoire, Paris 1909, P. 154.

محيط الأسرة فهى : أولا — واجب احترام الوالدين وإطاعتهما وعدم الخروج على إرادتيهما . ثانياً — واجب اشتراك أفراد الأسرة فيما يحصل عليه الفرد بمجهوده الخاص . فهو لا يعيش لنفسه وإنما هو مرتبط بغيره فى الأسرة . وأن الوجود الاجتماعى فيها عند الأقوام المتأخرة والتاريخية أقوى بكثير من الوجود الفردى ويطغى عليه . ثالثاً — واجب المعيشة فى سلام ووئام مع من حوله دون اعتداء أو إساءة أحد منهم . رابعاً — واجب عدم الاتصال غير شرعى من الناحية الجنسية بالنساء فى داخلية الأسرة . فالزنا محرم بين الأقارب . خامساً — واجب عدم سرقة الطعام فى داخل الأسرة ، واحترام ما يأمر به رؤساء الأسرة بهذا الخصوص ، لأن الطعام يهمهم جميعاً والفرد يجب ألا يستأثر بنصيب الأسد بينما يتضور غيره جوعاً (١) .

وهذه الواجبات التى قال بها رجال الاجتماع فى فرنسا وفى غيرها تدل دلالة واضحة على خطأ نظرية التطور فى فهم الأخلاق(٢) . فالأخلاق عند الشعوب المتأخرة والتاريخية لم تكن منحطة بالدرجة التى يتصورها هربرت سبنسر وأنها بنيت على الصراع والنضال وأنها أخلاق « حربية » كما يصفها ، وبدرجة أن الإنسانية فى نظره لم ترتق أخلاقياً إلا فى العهود الحديثة عند ما سادت الأخلاق التى يسميها « بالصناعية » والتى قامت على التضامن والمحبة الإنسانية(٣) . ونحن لا نؤكد نظرياً وعلى طريقة الفلاسفة التجريديين أمثال كانت وكندرسيه وباكل ، أن الطبيعة الإنسانية واحدة فى كل زمان وفى كل مكان وأنها خيّرة دائماً أبداً بفطرتها فهذا كلام فرضى لا يستسيغه العلم وعلم الاجتماع بوجه خاص(٤) . فى الواقع ليست الأخلاق فى الأشكال الأسرية القديمة بأخلاق مثالية تبغى الكمال المطلق أو الواجب فى ذاته كما يريد الفلاسفة ، وإنما هى أخلاق من طبيعة الأشكال الاجتماعية العامة للأسرة ، فهى أخلاق اجتماعية لا تبنى على الصراع كما أنها لا تبغى خلق قديسين وحكماء . فهى لا تنظر إلى الفرد فى ذاته وإنما تنظر إلى المجتمع وتماسك الأفراد فيه . فهى أخلاق ترمى — وكما يقول دوركيم — إلى خلق التضامن الآلى(٥)

(١) Muntsch & Spalding — Introductory Sociology, New York 1928, P. 27.

(٢) Ibid., P. 55, 62.

(٣) H. Spencer — Principles of ethics, vol. II, Part II, chap. X, P. 433.

(٤) Durkheim — Sociologie et philosophie, Paris 1924, P.P. 62, 63.

(٥) Durkheim — De la division du travail social, P. 155.

La solidarité mécanique فيما بين الأفراد وأسرهم وذلك بجعل العقل الفردى يخضع للعقل الجمعى[١] . وهذا العقل الجمعى ليس بحديث خرافة وإنما هو مجموع الواجبات الأسرية الأساسية والثانوية التى أشرنا إليها والتى هى فى نهاية الأمر تتركز فى العادات ونواحى العرف والتقاليد السائدة فى الأسرة[٢] .

أما فيما يتعلق بالأسرة المزدوجة فى العصر الحديث ، فانحصرت وظيفتها كما يذكر دوركيم فى الوظيفة الأخلاقية بوجه خاص ، فهى مدرسة للأخلاق . ولكن ما هى هذه الاخلاق الأسرية !

اختلفت وجهات النظر فى فهمها فمن المفكرين من بناها على الطبيعة الجسمية[٣] وأهم من يمثل هذا الاتجاه هو جان جاك روسّو ، فهو فى كتابه الأميل يقول باحترام السليقة والطبع عند الطفل وتركه يظهر من نفسه ميوله الذاتية ولا يهتم كثيراً بتعليمه تعليما عقلياً وأخلاقياً . ذلك لأن التربية الفكرية والأخلاقية تأتى فى نظره فى المرتبة الثانية بالنسبة للتربية الجسمية[٤] . ولهذا كانت دائرتها مغلقة وتنحصر فى تعليم الجغرافيا والطبيعة والتجارة . . . إلخ[٥] وهذه معارف عملية ، فكأنه لا يؤمن كثيراً بالمعارف التى تخلق الفرد فكرياً وأخلاقياً كدراسة العلوم الفلسفية . كذلك ليست الأسرة فى حاجة إلى أن تعلم الطفل الأخلاق لأن روسّو يفترض أن الطبيعة البشرية خيّرة بفطرتها[٦] . ولهذا عاش الإنسان سعيداً فى حالة الفطرة وعاش شقياً فى حالة المدنية . ولهذا أيضاً هاجم روسّو العلوم والفنون والآداب وعرّض بالمدنية فى بحثه الذى قدمه إلى مجمع ديجون . وهذه نزعة لا يقرها علماء الاجتماع اليوم . لأنها نزعة فرضية وفردية ، ذلك لأنها بنيت على التجريد العقلى ورمت إلى تقويم الفرد فى ذاته ، بينما الاتجاه الاجتماعى فى التربية يقول بغير ذلك . فالتربية بوجه عام تمهد الفرد ليملأ وظيفة معينة فى المجتمع[٧] . والتربية الأخلاقية فى الأسرة بوجه خاص تربطه بأفراد أسرته داخلياً وبأفراد المجتمع خارجياً .

---

(١) الدكتور عبد الواحد ص ٢٢ + Durkheim — Règles, P. 23

(٢) Durkheim — Division, P. 46.

(٣) Rousseau — L'Emile, L. I, II.

(٤) Rousseau Discours sur Inégalité, P. 169

(٥) Rousseau — L'Emile, L. III.

(٦) Rousseau — Discours, (les grands classiques illustrés) P. 17, 169, 176.

(٧) Durkheim — Division, Préf. 2e édition.

وهناك من بنى الأخلاق فى الأسرة على الفطرة النفسية ومثل هذا الاتجاه أوجست كونت . فهو يرى أن الفرد فى حد ذاته تتحكم فيه الغرائز ويميل بطبعه إلى الأنانية ولعل أهم هذه الغرائز المفسدة لأخلاق الفرد هى : الغريزة الجنسية — وغريزة حب البقاء وغريزة الطمع وعدم الاكتفاء . إلخ . ومهمة الأسرة هى ليست القضاء على هذه الغرائز لأنه لا سبيل إلى محو ما هو فطرى فى النفس وإنما مهمتها هى تحويلها إلى أهداف اجتماعية بحيث ينتقل الفرد من الأنانية إلى الغيرية . وبهذا تصبح الأسرة عاملا مهماً من عوامل الاستقرار الاجتماعى لأنها ستنشر روح الإخاء والسلام بين الناس فى المجتمع . لأن حياة المجتمع فى نظر كونت ما هى إلا انعكاس لحياة الأسرة الأخلاقية .

وتتجه التربية الأخلاقية فى الأسرة اتجاهين : الاتجاه الأول نحو الماضى فتربط الفرد بالتراث الاجتماعى القديم فينشأ محترماً للعادات والعرف والتقاليد معظماً للسلف ويأخذ عنهم . وهذا الاتجاه يقلم أظافر الأنانية فى الفرد ويربطه بقواعد السلوك التى أقرتها الأجيال السابقة . فتخلق عنده الطاعة واحترام الآباء والرؤساء وتصبح هذه الفضيلة عنده عادة يتبعها آلياً . أما الاتجاه الثانى ، فهو اتجاه نحو الحاضر مهمته تعليم الطفل التضامن مع من يعيش بين ظهرانيهم وذلك بخلق روح التعاطف والإخاء ومحاربة روح المنافسة والحسد والتحزب ، وبهذا تقوى الوحدة بين أفراد الأسرة وبين أفراد المجتمع بوجه عام[١] .

ولكن أراء أوجست كونت هذه تبدو غريبة بل ومتناقضة لأنه يرجع إلى الأساس النفسى فى الوقت الذى يهاجم فيه علم النفس ويحذفه من تصنيفه للعلوم[٢] ويجعل لعلم الاجتماع أهمية كبرى باعتباره أنه أول من فكر فيه من الأوربيين [٣] . ولهذا جعل الغاية اجتماعية من التربية الأخلاقية فى الأسرة . ومع ذلك لا يقر علم الاجتماع الحديث هذا التناقض بالرجوع تارة إلى عناصر النفس وتارة أخرى إلى العناصر الاجتماعية . ويقول على عكس ذلك بأن تكون العناصر كلها سواء فى الأساس والهدف اجتماعية صرفة . ولهذا يبنى هذا العلم وظيفة الأسرة الأخلاقية

(١) Comte — Système de politique positive, T, II, Paris, Crès, P.P. 183 à 187.

(٢) Comte — Cours, I, 2e Leçon, P. 47.

(٣) Comte — Cours, V, 52 Leçon, P. 7.

على أساس اجتماعى وعلى هدف اجتماعى كما سنرى . فالظواهر الاجتماعية يفسر بعضها بعضاً[١] ولا دخل للعناصر النفسية أو الحيوية أو الكونية فى فهم وتفسير طبائع الظواهر الاجتماعية والتى منها التربية الخلقية ، فى الأسرة . فهى من طبيعة خاصة ومستقلة وتخالف تمام المخالفة الطبائع الثلاث المشار إليها .

وهناك بعد ذلك من المفكرين الأوربيين من بنى الوظيفة الأخلاقية ،فى الأسرة على الدين وهم رجال الدين بوجه خاص وأهمهم فى العصر الحديث الكردينال فردیه Verdier رئيس أساقفة فرنسا السابق ، فهو يرى أن الوظيفة الأخلاقية للأسرة وظيفة شكلية وليست فعلية . لأن الذى يقوم بهذه الوظيفة خير قيام هى الكنيسة والمدارس الدينية ومهمة الآباء فى ذلك مهمة ثانوية هى السير وراء تعاليم الكنيسة الأخلاقية وغرسها فيهم عن طريق العطف والمحبة والتى تقوم بهذه المهمة فى الأسرة هى الأم ، إن ما تعلمه الكنيسة ومدارسها فى العادة للصغار هى المبادئ العامة التى يحتويها ما يسمى بال Catéchisme وهو كتاب صغير يلخص النواحى العامة التى فى الكتاب المقدس [٢] . ومن ضمن هذه النواحى الناحية الأخلاقية التى ترتكز على الواجبات المسيحية الكبرى وهى ثلاثة : واجب الإيمان وواجب الأمل وواجب الإحسان[٣] . ويقصد بالإيمان العقيدة الراسخة بأن الله خيّر ولا يمكن أن يفعل الشر أو يضلل الإنسان . ويقصد بالأمل التصديق المطلق بما وعد الله عباده الصالحين من ثواب فى الآخرة . ويقصد بالإحسان محبة الله لله ومحبة الجار والناس كمحبتنا لأنفسنا . وأهم هذه الواجبات هو بطبيعة الحال واجب الإحسان[٤] .

هذه الواجبات الدينية واجبات إنسانية لها أهميتها فى نفوس النشء ، ولهذا وجدت من المفكرين — غير الدينيين — من يؤيد تلقينها للصغار فى محيط الأسرة وبواسطة الأم وخاصة الأستاذ توما Thomas[٥] . ولكن دوركيم ليس من هذا الرأى فهو يريد هذه الوظيفة بعيدة عن الدين وأن تتخذ صفة القداسة الاجتماعية [٦]

---

(١) Durkheim — Règles, P. 117.

(٢) Sicard — Le livre de la famille et de l'école, 3e édition P. 273.

(٣) Catéchisme catholique (approbation de l'archevêque d'Utrecht, 1905) P. 129

(٤) Ibid., 130.

(٥) Thomas — L'éducation dans la famille (nos filles) Paris 1919, P.P. 53-57.

(٦) Durkheim — L.A.S., T. I, P.P. 59-60.

بخضوعها لفكرة الواجب مفهوماً على طريقته الاجتماعية لا على طريقة الفلاسفة النظريين وخاصة كانت[١] . وعلى الرغم من ذلك فإن بعض متبعيه فى فرنسا وفى خارج فرنسا لا يوافقونه فى رأيه وينصحون بإضافة التربية الدينية بجانب التربية الأخلاقية فى الأسرة ، منهم الأستاذ جوبلو Goblot [٢] . وأيضاً الأستاذ الدكتور عبد الواحد[٣] . وأنا أميل إلى الأخذ بهذا الاتجاه ، وذلك لأن الدين مظهر اجتماعى مهم ومن المسائل الفعالة لدعم الوجدان وبفضله يمكن مقاومة موجة الإباحة التى عمت بعد الحروب الحديثة ، ومحاربة طغيان الروح المادية التى نتجت عن الحضارة الصناعية القائمة ، ومقاومة سوء فهم مبادئ الحرية ، وسوء تطبيق مبادئها سياسياً مما قوى النزعة الفردية والحزبية بين الناس . والقضاء على انعدام العدالة الاجتماعية بين الطبقات وعلى روح الاستغلال فيما بين الطبقات وفيما بين الأمم كذلك[٤] .

وهناك بعد ذلك من بنى الوظيفة الاجتماعية فى الأسرة الحديثة على أساس اجتماعى . ولعل الأساس المرفولوجى الخاص ببنية المجتمع هو الذى له الأهمية القصوى فى مدرسة دوركيم[٥] . غير أنه يختلف فى شكله فيما بين دوركيم وغيره من تلاميذه كجبلو . فيذهب دوركيم مثلا إلى أهمية حجم الأسرة ، ويريد بذلك كثافتها ومبلغ عدد أفرادها[٦] . فكلما كبرت الأسرة واتسعت تأكدت الوظيفة الأخلاقية فيها ، وكلما صغرت وقل حجمها ضعف شأن هذه الوظيفة[٧] — فكثافتها تقوى الروح الأخلاقية وتزيد من الترابط بين أعضائها فيذكو الحس الاجتماعى عندهم ويشعرون أن هناك روحاً جمعية وعقلا كلياً يعلو عليهم[٨] ويضغط عليهم وله قداسته ويهابونه ويثير فى نفوسهم معنى الواجب ، ولكن الواجب هنا ليس له المعنى الفردى النظرى وأنه خاص بانسان عام لا يرتبط بأسرة معينة ولا بزمان ومكان معينين . وهو ليس بواجب يشعر به الإنسان فى داخلية نفسه على طريقة كانت وأن عنده

---

(١) Durkheim — Sociologie et philosophie, P. 62, 63.

(٢) Goblot — La barrière et le niveau Paris 1925, P. 93.

(٣) الدكتور عبد الواحد — الأسرة والمجتمع — ص ٢١

(٤) Murry & Flynn — Social problems, New York 1964, P. 309.

(٥) Durkheim — Règles de la méthode sociologique, chap. IV.

(٦) Durkheim — Règles, P. 139.

(٧) Durkheim — Suicide, Paris 1902, P. 222.

(٨) Durkheim — A.S., T. I, P.P. 59-60.

بالفطرة . وإنما هو واجب اجتماعى مكتسب يأتى إلى الإنسان من محيطه الخارجى الذى يعيش فيه[١] . وخاصة من الأسرة ومن البيئة الاجتماعية . ويتمثل هذا الواجب فى التضامن الواجب قيامه فيما بين الفرد والهيئة التى ولد فيها[٢] .

ولكن دوركيم يقف عند هذا الحد ، وعند هذا الكلام العام ودون أن يخصص لنا الواجبات العملية التى يجب أن تقوم فيما بين أعضاء الأسرة فتربطهم وتحقق هذا التضامن والتماسك فيما بينهم . ولهذا سنوضح هذه النقطة التى تركها غامضة .

يميز دوركيم فى كتابه عن الانتحار عند ما يعرض للعلاقة فيما بينه وبين الأسرة إلى الكلام عن عناصر الأسرة ، فيذكر أنها اثنان : أولا الآباء . ثانياً الأبناء[٣]. وبناءً على هذا التقسيم يمكننا أن نميز بين : أولا واجبات فيما بين الآباء . ثانياً واجبات فيما بين الأبناء . ثالثاً واجبات فيما بين الآباء والأبناء .

أما فيما يتعلق بواجبات الآباء نحو بعضهما فتنحصر فى نظرى فى واجبات مشتركة وفى واجبات خاصة بكل منهما . الواجبات المشتركة هى : واجب الاحترام، المتبادل فيما بينهما . فكثرة المخالطة وطول المعاشرة لا تمنع من قيامه وليس من الضرورى أن يتخذ شكلا طنـــاناً له مراسم خاصة وإنما تكفى الإشارة فى ذلك وخاصة بتجنب الألفاظ الغليظة والحركات الجارحـــة والنعوت الرخيصة وغير ذلك من عناصر الابتذال والتصغير[٤] وثانى هذه الواجبات الإخلاص وهو قيام المحبة وعدم خيانة أحدهما للآخر لأن زواجهما بنى على تعاقد حر وعلى قبول كل منهما لأخيه بإرادته[٥] . وأخيراً هناك واجب المساعدة وهو العون الذى يقدمه كل منهما للآخر وهو لا ينحصر فى المساعدة المادية وإنما أيضاً فى المساعدة الروحية كبث روح الشجاعة والإقدام واحتمال صدمات الحياة بصدر رحب وغفران الأخطاء المتبادلة فيما بينهما .

أما عن الواجبات الخاصة بالزوج فهى الإقبال على العمل لدعم حياة الأسرة فالرجال قوامون على النساء والرجولة تأنف الاعتماد على دخل الزوجة أو كسبها ،

---

(١) Durkheim — Sociologie et philosophie, P.P. 59, 62, 63.

(٢) Durkheim — A.S., T, I, 59-60.

(٣) Durkheim — Suicide, P. 191.

(٤) Lemarié — La morale privée, Paris 1932, P. 29.

(٥) Ibid. P. 30.

ثم هناك واجب حماية الزوجة من الإغراء الخارجى وبالترويح عنها ومساعدتها بما يستلزم تشهيل إشرافها على الحياة المنزلية . فغرض الحماية إسعاد الزوجة واشعارها إنها ليست رقيقة وإنما سيدة فى المنزل[١] . أما عن واجبات الزوجة الخاصة فهى الطاعة مع احتفاظها بقدرها الإنسانى كى لا تنزل إلى الضعة ، وأيضاً واجب التدبير وعدم الإسراف والسعى وراء الكماليات ، فالضروريات ألزم ولا تكلف الزوج ما لا طاقة به[٢] .

أما عن واجبات الأبناء نحو بعضهم البعض فهى أيضاً إما مشتركة وإما خاصة . المشتركة تتلخص فى الاحترام والمحبة والوفاق . ونريد بالاحترام تقـــدير كل أخ لأخيه وأخته باعتبارهم أعضاء متضامنين فى الأسرة يبغون جميعاً هدفا واحداً هو رفاهيتها وسعادتها . لهذا وجب التعاون فيما بينهم للوصول إلى هذه الغاية فيطرحون وراءهم ظهرياً التنابذ والحسد والفرقة[٣] . بينما المحبة هى الصداقة الأخوية التى تبنى على المشاعر الصادقة الصادرة من القلب بحكم اشتراكهم . جميعاً فى نفس الذكريات والخطط والآمال وفى العادات والنزعات . فالأخوة هى الصداقة الطبيعية التى لا تبغى إلا وجه الصـــداقة دون نظر إلى فائدة أو أطماع أو أغراض معينة[٤] . أما الوفاق فينحصر فى اتباع توجيهات الوالدين لأنها تقيم عادة العدالة فيما بين الأبناء وأيضاً فى مقاومة كل أنانية وحسد وتهكم وتصغير لشأن بعضهم فهذه رذائل تسبب التشاحن فيما بينهم[٥] .

أما عن الواجب الخاص بالإخوة وخاصة إذا كانوا كباراً فهو إعطاء المثل الصالح لأخواتهم ورعايتهن وحمايتهن والتضحية من أجلهن[٦] . بينما واجب الأخوات هو العمل المنزلى فهو فضلا عن أنه مفيد لأخواتهن فهو مفيد لهن لأنه يمهدهن ليكن زوجات ماهرات لا يعلقن بخيال الفراغ[٧] .

وهناك بعد ذلك واجبات الآباء نحو أبنائهم وتتلخص فى المراقبة والإصلاح

---

(١) Ibid., P.P. 31, 32.
(٢) Ibid., P. 32.
(٣) Ibid., P. 43.
(٤) Sicard — op. cit. P. 92.
(٥) Ibid. P. 93.
(٦) Ibid., 95-96.
(٧) Ibid., P.P. 229, 250.

والصرامة . المراقبة هى السهر على عادات الأطفال فى أقوالهم وأفعالهم وتوجيههم الوجهة الصحيحة الفاضلة فيها[١] . والإصلاح ينصب على مقاومة النزعات الأنانية[٢] . والصرامة هى الحزم فى معاملتهم لأن اللين مفسد لهم . والحزم يتطلب العدالة فى معاملة الأبناء دون تفضيل فيما بينهم فكلهم سواء[٣] .

أما عن واجبات الأبناء نحو آبائهم فهى الاحترام والطاعة والاعتراف ، بالفضل . الاحترام ليس بشىء خارجى يصدر فقط من الأقوال والأفعال وإنما هو شىء داخلى أيضاً يصدر عن القلب ، فلا يتجه تفكيرهم إلى عيوب الآباء وسقطاتهم . والطاعة هى عدم مخالفة أوامر الآباء لأنها تصدر عن محبة وتقدير لصالح الأبناء . وهى لها فوائدها لأنها تقضى عند الطفل على عناده ونزواته وتقلل من رغباته وتعلمه قوة الإرادة فى مقاومة أطماعه وشهواته وكل هذه صفات لها أهميتها فى مستقبله . والاعتراف بالفضل لا يكون بالكلام وإنما بالأفعال وذلك بتقديم المساعدات الأدبية والمادية لهم عند الحاجة وخاصة فى مرضهم وشيخوختهم وعوزهم وفى أزماتهم العارضة[٤] .

ولعل أهم الواجبات الأسرية طرًّا هوواجب الاحترام ، فهو المحور الذى تدور حوله الوظيفة الأخلاقية فى الأسرة ، ولهذا عرف دوركيم الأسرة المعاصرة بأنها «مدرسة للاحترام المتبادل»[٥] . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن الاحترام يتضمن معنى الإلزام . وفيه تتمثل أهم صفات الظواهر الاجتماعية وهى صفة الضغط والجبر والتحتيم[٦] . ولسبب آخر هو أن دوركيم يضع أهمية كبرى للقانون فى تماسك الهيئات الاجتماعية ، والاحترام له هذه الصفة القانونية لأن القانون المدنى فى باب الأسرة ينص على وجوب قيام الاحترام بين أعضاء الأسرة وخاصة بين الأبناء والآباء[٧] . ولهذا إذا ضعف الاحترام فى داخلية الأسرة ذهبت هيبتها وضعفت

---

(١) Sicard, P.P. 62, 66.

(٢) Ibid., P. 66.

(٣) Ibid., P.P. 67-69.

(٤) Ibid., 80 - 84

(٥) Durkheim — A.S., T, I, 59 à 60.

(٦) Durkheim — Règles, P. 7.

(٧) Durkheim — Division, P. 29.

وحدتها ونزل عليها العقاب الاجتماعى فى شكل ازدراء الناس لأعضائها وربما أيضاً العقاب القانونى إذا أجرم أفرادها فى حق بعضهم البعض .

ومما تقدم نرى أن دوركيم اهتم بالواجب فى داخلية الأسرة ولم يوضحه كما فعلنا . وهناك جانب آخر لوظيفة الأسرة الأخلاقية هو الجانب الخارجى الذى يتعلق بصلات أفراد الأسرة بالمحيط الاجتماعى الذى يعيشون فيه . وهذا الجانب عرض له تلميذ من تلامذة دوركيم هو الاستاذ جوبلو Goblot ، وبناه أيضاً على أساس مرفولوجى هو الطبقة الاجتماعية ، والطبقة هنا هى الطبقة الراقية La bourgeoisie وهى بوجه عام طبقة تتوسط عادة بين الطبقة المفرطة فى الثروة وبين الطبقة الفقيرة . وإذا كانت قيمة طبقة كبار الأغنياء ترتكز على المال ، وطبقة الفقراء على العمل والتناسل ، فقيمة هذه الطبقة تأتى من الأخلاق فهى التى تمثل المستوى الأدبى الراقى فى المجتمع . وعنها فى هذا الباب تأخذ الطبقات الأخرى فهى مثلهم الأعلى .

وأهم الواجبات لمعاملة الغير فى خارج محيط الأسرة فى هذه الطبقة تنحصر فى نظر جوبلو فى ستة هى : واجب الشرف ، والأمانة ، والنبل ، والعمل ، والادخار والنظام [١] . وهى واجبات واضحة المعانى ولسنا فى حاجة لتعريفها لضيق المقام . والشىء المهم الذى يجب أن نعرفه هو أن الشرف أهمها طراً لأن أفراد طبقة البرجوازيه يعتدون بأنفسهم ويعتبرون أن لهم تاريخاً راسخاً له احترامه من الآداب وحسن المعاملة فهم أساتذة الأخلاق بالنسبة لغيرهم فى المجتمع ، وقيمة الفرد تأتى من أخذه بأساليب التخلق عندها وبمعايير فضائلها [٢] .

وإذا تكلمنا إلى الآن عن الواجبات فى داخلية الأسرة وفى خارجيتها ، فيجب ألا ننسى ونحن فى ختام هـــذا البحث أن نشير إلى أهم الرذائل فى الأسرة وهى فى نظرنا ثلاثة : الكذب [٣] ، والزنا [٤] ، والطلاق [٥] ، فهى العناصر الأساسية للفساد وانحلال الأسرة .

---

(١) Goblot — op. cit., P. 99.

(٢) Ibid., P. 102.

(٣) Thomas — L'éducation dans la famille (nos fils) Paris 1919, chap. IV.

(٤) Goblot, P.P. 103, 105, 107, 109.

(٥) الدكتور عبد الواحد . Murry & Flynn, P. 254 +

أما بعد :

فوظيفة الأسرة الأخلاقية وظيفة اجتماعية فى أساسها وفى غرضها : فى الجماعات القديمة كان أساسها الدين وغرضها خلق التضامن الآلى[١] . ويقصد دوركيم بالتضامن الآلى ترابط الفرد ترابطاً آلياً يخضع فيه خضوعاً مطلقاً يقضى على وجوده الذاتى ويكون كالآلة فى يد المجتمع يفعل به ما يشاء . بينما بنيت فى الجماعات الراقية على الكثافة وعلى التضامن العضوى[٢] . وهو تضامن يرتكز على أن الفرد عضو محترم له إرادته الحرة ويأخذ بالواجبات الأسرية على اختلافها باختياره . فهناك إذن ترابط لعضو له وجوده الذاتى فيما بينه وبين أسرته وفيما بينه وبين غيره من الناس فى محيط المجتمع .

ونلاحظ بعد ذلك أن هذه الوظيفة الأخلاقية للأسرة ليست وظيفة إنسانية ولا وظيفة شعبية[٣] . فهى لا تريد خلق حكماء وقديسين غايتهم بلوغ الكمال المطلق على طريقة أفلاطون قديماً وكانت حديثاً ، كما أنها ليست أخلاقاً عامية دارجة تسيطر عليها الحكم والأمثال والمعتقدات الشعبية والخرافات وغير ذلك من عناصر العادات والعرف وسنن المعاملات العامة[٤] . وإنما الأخلاق فى الأسرة وسط بين هذه وتلك أخلاق خاصة بطبقة معينة هى طبقة البرجوازيه[٥] . أخلاق تريد خلق الرجل الفاضل المؤدى واجباته خير قيام فى داخلية أسرته . والآخذ بأصول الأدب الرفيع مع غيره فى خارجيتها ، فهى أخلاق عملية لا نظرية ، وهى مكتسبة تأتى إلى الإنسان من محيط طبقته الراقية وتلزمه باتباعها[٦] . فهى أخلاق غرضها قريب يرمى إلى خلق احترام الفرد فى أعين من يعيش بين ظهرانييهم فيبدو مكرماً لما له من الشرف والقدر الاجتماعى[٧] .

عبد العزيز عزت

---

(١) Durkheim — Division, P. 155-157.

(٢) Ibid., Chap. CI, P. 157.

(٣) Goblat. op. cit., P. 98.

(٤) انظر كتابنا – السلطة فى المجتمع – مصر ١٩٤٩ ص ٣٢ – ٥٢ .

(٥) Goblot, 99.

(٦) Ibid., 89.

(٧) Ibid., 91.

أثر علاقة الطفل بوالديه فى زواجه

بقلم

كمال الدين عبد الحميد نابل

مدرس الفلسفة بالمعلمين الثانوية

ليس من شك فى أن ميلاد أول طفل فى العائلة يغير الموقف السيكولوجى فى الأسرة . حقاً ، إن ميلاد الطفل يساعد على توطيد الرابطة بين الزوجين إلا أنه يتطلب من ناحية أخرى تنظيما جديداً للحب والعطف المتبادلين بين الزوجين . فكل من الزوجين فى حاجة إلى أن يتنازل عن جزء من الاهتمام الذى كان يحظى به من الشريك الآخر . ذلك ما يحدث فى الحالات السوية . أما فى الحالات المرضية حيث يفضل الزوج أن يظل ، لا شعورياً ، إبناً يتطلب من زوجته أن تعامله كما لو كان ابناً لها لا شخصاً راشداً عليه أن يقوم بتبعات الأشخاص الراشدين ؛ أو حيث تكون الزوجة لا تزال مرتبطة ، لا شعورياً ، بأبيها وتحب من زوجها أن يعاملها كما لو كانت طفلة فإننا نجد ، فى مثل هذه الحالات ، أن مثل هؤلاء الأشخاص ليسوا على استعداد سوى لتربية الأطفال لأنهم لا يريدون أن يشاركهم أحد فى الحب المتبادل بينهم وبين أزواجهم . ولعل هذا الاتجاه اللاشعورى هو السبب فى رغبة بعض الأزواج أو الزوجات أن يظلوا بلا خلف إطلاقاً أو أن يطيلوا من المدة التى لا ينجبون فيها الأطفال .

وعلينا الآن أن نعرض عرضاً موجزاً لعلاقة الطفل بأمه لما ظهر من اهميتها كعامل من العوامل الرئيسية التى تقرر وتعين إلى حد كبير مدى نجاح الشاب فى حياته الزوجية المقبلة . وبعد ذلك نعرض لحالتين قمنا بدراستهما حيث تبين لنا منهما كيف أن الفشل فى الحياة الزوجية مرده إلى الارتباط الوثيق بالأم فى فترة الطفولة . فلقد طابق كل من الشابين ، لا شعورياً ، بين زوجته وأمه ورغب فى أن تعامله الزوجة كما لو كانت أماً .

تنمو علاقة الطفل بأمه منذ مطلع الحياة على نحو بطىء . ويعتقد أغلبية

المحللين النفسيين أن علاقة الطفل بأمه أثناء الأسابيع الأولى بل الشهور الأولى كذلك هى علاقة بسيطة نوعاً ما . ولقد انتهوا إلى هذا الرأى نتيجة لخبرتهم التى اكتسبوها من تحليل البالغين والأطفال وملاحظاتهم المباشرة للأطفال منذ ولادتهم. فالأم هى الوسيلة التى تشبع حاجات الطفل الجسمية . وأى فرد يحقق هذه الوظيفة للطفل يستثير عنده نفس الاستجابة . ولقد قال نفر بسيط من علماء التحليل النفسى بنظرية فى النمو النفسى لدى الطفل تفيد وجود علاقة نفسية معقدة بين الطفل وأمه تظهر مباشرة عقب الولادة . ومن أنصار هذا الرأى ميلانى كلين . ولكن ليس فى الإمكان حتى الآن ، كما تقول كيت فريدلنددر ، الحصول على الحقائق العلمية التى تثبت هذه النظرية بل ، على العكس ، تميل بنا الحقائق التى فى متناولنا إلى توطيد الرأى القائل بالنمو البطىء للحياة النفسية على أساس الحاجات الجسمية . ولا يستطيع الطفل فى مبدأ حياته أن يميز بين ذاته والعالم الخارجى . ويكاد الرضيع حتى هذه للحظة ألا يشعر بما يدور حواليه . ويبدأ الرضيع فقط فى الشعور بوجوده إذا كان هناك ما يقلق راحته . وهو لا يستطيع أن يميز ما إذا كان مصدر عدم الراحة شعوره بالجوع أم أنه يرجع إلى مؤثر خارجى . ويستجيب لكل ما يقلق راحته سواء كان مصدره باطنياً أم خارجياً بشقاء بالغ يتخذ من بكائه وسيلة لإعلانه إلى العالم الخارجى . فإذا ما أرضيت وأشبعت حاجاته نام من جديد وبعبارة أخرى سحب انتباهه من العالم الخارجى . وتصبح الأم مرتبطة فى ذهن الطفل بإزالة الألم وانتفاء حالة عدم الإشباع على نحو بطىء خلال الأسابيع والأشهر الأولى خاصة عد الأطفال الذين يرضعون من ثدى الأم . وعلى ذلك تقوم أول علاقة تربط الطفل بأمه على أساس إشباع الحاجات المادية وحدها . وفى أثناء النصف الثانى من العام الأول نلحظ تغيراً فى علاقة الطفل بأمه ألا وهو قدرله على التمييز بين أمه والمحيطين به . ويود أن تكون أمه باستمرار إلى جانبه حتى ولو لم يعان ألماً فيحب أن يلمسها بيديه ويداعب ثديها ويبتسم لها . ومن المحتمل أن تكون هذه الوحدة النفسية التى تبدأ فى التكوين إبان ذلك الوقت والتى تصل إلى قمتها أثناء العام الثانى ، شديدة عند الأطفال الرضع الذين تربطهم صلة وثيقة بأجسام أمهاتهم منها عند الأطفال الذين يتناولون طعامهم من « البزازة » .

ومن المحتمل صحة القول الذى يفيد أن مشاعر الطفل فيما بين السنة الأولى والثانية بالنسبة لأمه مماثلة لما نسميه بالحب ؛ وإن هذه المشاعر لتبلغ فى عمقها واستمرارها

مشاعر البالغ . ويساهم كثير من العوامل فى تقوية هذه الصلة . فهناك اعتماد الطفل المطلق على أمه لأنها الشخص الذى يمنع الموت عنه . وهناك أيضاً دوافع الطفل الغريزية الآخذة فى النمو والتى اتخذت العالم الخارجى لأول مرة هدفاً لها . وهناك أيضاً الظاهرة التى تفيد أن هذه الدوافع الغريزية ، التى يمكن وصفها أضبط وصف وأكمله فى هذا الوقت على أنها رغبة الطفل فى أن يستبق جسم أمه أقرب ما يكون إليه لا تطيق الانتظار حتى تشبع لأنها تولد توتراً نفسياً حاداً فى الطفل يدفعه إلى التماس الراحة فى الحال . وفى المرحلة المبكرة لهذه العلاقة ، أى فى النصف الأول من العام الثانى ، لا تزال الوحدة التى تربط الطفل بالأم كاملة . ويعادل شعور الطفل الشديد بالحب لأمه فى الأهمية شعوره بالخوف من أن تتركه أمه وحده . فوجود الأم معناه إشباع حاجاته وغيابها معناه عدم إشباعها . ومن ناحية أخرى ، نلاحظ عدم إدراك الطفل أن غياب أمه هو غياب عارض مؤقت . فغياب الأم يشعره بشقاء بالغ . ولقد جمعت كل من آنا فرويد ودروثى برلنجهام مادة قيمة جداً فيما يتعلق بانفصال الطفل عن أمه فى هذه المرحلة التى تتميز بهذه العلاقة الوثيقة السعيدة بين الطفل وأمه . وتفسر الاستدلالات والنتائج التى انتهيا إليها كثيراً من الأعراض التى ظهرت أثناء هجرة الأطفال إبان الحرب العالمية الثانية . ولا تظل العلاقة سعيدة بين الطفل وأمه على طول الخط . وتسير الأمور كما يشتهى الطفل لوقت معين . فمن المعروف أن حب الأم يلعب دوراً هاماً فى النمو النفسى للطفل ، كما أن الخوف من الأم كذلك يلعب نفس الدور إن لم يفقه فى الأهمية الأمر الذى يترتب عليه أن يتنازل الطفل عن بعض دوافعه الغريزية حرصاً على هذا الحب وخوفاً من ترك الأم له وحده.

ولكن سرعان ما تتأزم الأمور أمام الطفل : فهناك الأطفال الكبار الذين يشاركونه فى حب الأم ، وهناك الأب ذلك الكائن الجبار الذى يمتلك الأم ، بل هناك كذلك احتمال مجىء طفل صغير سيحظى بمعظم عناية الأم إن لم يكن كلها. كل هذه الأمور يدركها الطفل بوضوح أكثر فى عامه الثالث وبقدر ما لها من أهمية . ويبدأ سلوك الصبى والبنت فى الاختلاف حوالى الثالثة . فيود الصبى من أمه أن تعامله كحبيب ويعترى علاقته بأبيه بعض التغير : فيمتزج الإعجاب بالغيرة من الأب نظراً لعلاقته الوثيقة بالأم بل يتخذ الطفل من أبيه ، فى بعض الأحيان ، موقف المنافسة الصريحة . ويختلف الأمر بالنسبة للبنت . فتغير الطفلة موضوع حبها الأصلى — الأم — ويصبح الأب هو الموضوع فى حين أن موضوع الحب بالنسبة

للصبى يبقى كما هو دون تغيير . وتظهر الغيرة من الأم نظراً للارتباط الوثيق بالأب الذى أصبح موضوعاً للحب عند البنت. ونظراً لأن البنت ما زالت فى حاجة إلى أمها، فإنها لا تفصح عن غيرتها بنفس الدرجة التى يفصح بها الولد . وهناك عامل آخر يجعل المسألة أكثر صعوبة بالنسبة للبنت ألا وهو تفضيل عضو الذكر . وعلى وجه العموم ، تمتاز هذه المرحلة الأوديبية بالانفعالات القوية العنيفة نظراً للتناقض الوجدانى عند الصبى : فهناك لأحبه بيه وغيرته منه . وكذلك البنت تحب أمها وتغار منها لامتلاكها لأبيها . يضاف إلى ذلك أن هذه الدوافع العنيفة لا تجد أى إشباع حقيقى لها . وفى هذا الوقت يبلغ التشوق إلى استطلاع المسائل الجنسية أقصاه ويتهيج الأطفال فى هذه المرحلة جنسياً خاصة عند النمو ويجدون فى عملية جلد عميرة راحة وتنفيساً من القلق الذى يعانونه . ويصاحب عملية جلد عميرة ضروب من الخيالات المتصلة بالمحارم والتى تكشف عن فكرة الطفل عن الحياة الجنسية كما أنها قد تتضمن عناصر سا ية كمناظر الضرب التى تكون بمثابة التعبير المقنع عن العدوان الذى يحصل أثناء عملية الجماع بين أبيه وأمه . وتصبح عملية جلد عميرة فى ذلك الوقت المركز الذى تدور حوله الحياة الجنسية الطفلية .

ومصير علاقة الحب الأولى الموّجهة إلى الوالدين الإخفاق لأسباب فسيولوجية إن لم يكن لأسباب أخرى . ولعل أهم الأسباب هو الخوف الذى يعانيه الطفل من أحد الوالدين ، الذى من نفس جنسه ، نتيجة لمشاعر الكراهية التى يضمرها له . فالطفل ما زال يترع إلى الاعتقاد بقوة أبيه الخارقة وعلمه المحيط بكل شىء مما يؤدى إلى اعتقاده أن أباه يعلم هذه المشاعر التى يكنها له — وهى مشاعر عدوانية — كما أن الأب يعلم كذلك رغبته فى امتلاك الأم الأمر الذى يترتب عليه الخوف من عقاب أبيه الذى يتمثل فى إخصائه وحرمانه من ذكورته . وينتهى الأمر بتغلب خوفه من حرمانه من ذكورته على رغبته فى امتلاك الأم فيتقمص شخصية أبيه حتى إذا كبر كان فى مقدوره أن يتزوج امرأة كأمه . ولكن الدوافع الغريزية لا تختفى بسهولة . فما الذى يحدث لهذه الدوافع الغريزية بعد تقمص الطفل لشخصية أبيه ؟ أول ما يحدث أن الطفل لا يود أن يعرف بطريقة شعورية أى شىء يدور حول هذا الصراع ومن ثم يُكبت هذا الصراع مع بعض هذه الدوافع الغريزية ، وتعمل الطاقة الكامنة لهذه الدوافع المكبوتة فى تكوين الصورة المثالية للأب الذى تقمص الطفل شخصيته . ويترتب على هذه العملية أن تفقد هذه الدوافع طابعها الجنسى .

وتبقى بعض الدوافع الأخرى ولكن يعتريها الكف Inhibition فى غرضها الذى تستهدفه ومن ثم تتضمن الشعور بالحنان الذى يشعر الطفل به فيما بعد بالنسبة لوالديه. أما عن المشاعر العدوانية ، فإنها وقد سُلبت موضوعها تتجه إلى الطفل نفسه ، وتلعب دورا هاماً فى تكوين الضمير عند الطفل . وهذا هو الوجه السليم الذى ينتهى إليه الموقف الأوديبى . ولكن قد يحدث أن يتخذ هذا الصراع شكلا مرضياً إما لقسوة الأب أو للرغبة الشديدة فى امتلاك الأم نتيجة لغيبة الوالد الطويلة الذى يظهر فجأة عند ما تصل الرغبات الأوديبية القمة ، كما يحدث مثلا أثناء الحروب ، فمن المحتمل فى هذه الحالة أن تتحول الرغبة من الأم إلى الأب أى قد يتخلى الطفل فجأة عن الأم نظراً لقسوة الأب الشديدة ويبحث عن إرضاء الحب ودوافعه الغريزية عند الأب . ويؤدى هذا الأمر إلى اتخاذ الصبى اتجاهاً سلبياً مختثاً بالنسبة لأبيه مما يؤدى إلى كبت هذه الدوافع بدورها لأن مجرد الاعتراف بها إنما هو اعتراف من الصبى بأنه أصبح كالبنت وأنه أصبح « مخصياً » . وقد يترتب على ذلك وجود اتجاه جنسى مثلى كامن أو سافر فى حياة الطفل المقبلة أو اتخاذ سلوك غير اجتماعى كأن يعارض معارضة عنيفة من بيدهم السلطة أو ينطوى تحت لواء صبيان أكبر منه يتخذون منه أداة طيعة لتنفيذ سلوك اجتماعى مضاد .

وينتهى الصراع الأوديبى للبنت بتقمصها لشخصية أمها حتى تجد فى مستقبل أيامها حبيباً لها كأبيها . وتتعدل الدوافع الغريزية فى نفس الاتجاه وتحدث إمكانيات مماثلة تبعاً لشدة الخوف ومشاعر الذنب التى تعانيها البنت . وقد يحدث بالنسبة للبنت أن ينتهى الصراع بتقمص الفتاة لشخصية أبيها بدلا من أمها الأمر الذى يفضى فيما بعد إلى اتجاهات جنسية مثلية أو قد تكبت البنت الصراع بأكمله مما يؤدى إلى التثبيت Fixation بالنسبة للمرحلة الأوديبية . ويحدث هذا عادة عند ما تميل الفتاة فى حياتها المقبلة إلى حب الرجال المتزوجين .

هذا عرض موجز لفكرة مركب أوديب لما يترتب على الطريقة التى يحل بها هذا الصراع من أثر فى حياة الطفل المقبلة .

وبعد هذا العرض الموجز لعلاقة الطفل بوالديه ، خاصة الأم ، علينا أن نبين عن أثر هذه العلاقة فى حياته الزوجية المقبلة . فإذا ما بالغت الأم فى إظهار حنانها بصورة مفرطة أدى هذا إلى تعطيل النمو الوجدانى للطفل . وهناك بعض العوامل التى تساعد على تعطيل النمو الوجدانى للطفل كموت أبيه وهو صغير ، أو يكون الطفل

هو الذكر الوحيد فى العائلة أو يكون أحد والديه عصابياً . وإذا ما اجتمع معظم هذه العوامل كانت النتيجة وبالاً على الطفل . وليس معنى هذا القول أن كل طفل يموت أبوه وهو صغير لا بد أن ينشأ منحرفاً ، ولكن كل ما نرمى إليه هو القول بأن هذا العامل أو غيره من العوامل الأخرى هى عوامل مساعدة. فوجود الأب عامل مهم بالنسبة للطفل . فالأب يمثل القيود التى يفترضها المجتمع : ما يجب أن يعمل وما يجب أن ينبذ . وقد يساعد على تقليل الأثر الناجم من موت الأب الاتزان العاطفى للأم والاتجاه الواقعى الذى تسلكه فى معاملتها لطفلها . وهذا أمر قليل الحدوث فى معظم العائلات المصرية نظراً لما يتطلبه من معرفة علمية بنفسية الطفل . فلقد لاحظ الكاتب حالة زوج أخفق فى حياته الزوجية نظراً للارتباط الوثيق بينه وبين أمه . فلقد بالغت أمه فى إظهار حنانها بصورة مفرطة مما أدى إلى تعطيل النمو الوجدانى للطفل وتثبيته عند مرحلة معينة .

س . ش الذكر الوحيد فى العائلة وأصغرها سناً . مات أبوه وهو لا يزال فى العام الأول من عمره . بالغت أمه فى الحدب عليه بصورة أشعرته بأهميته فكانت تسارع إلى إجابة جميع رغباته . وإذا ما توانت عن إجابة مطلب من مطالبه ، كان معنى ذلك إعلان الثورة والهياج . فكان سلوكه سلوك الطاغية الصغير الذى لا يرحم ولا يلين . وظل الأمر على هذا المنوال إلى سن السابعة فتزوجت أمه وكفله عمه لمدة سنة نظراً لوفاة زوج أمه ورجوعه من جديد إلى أحضان أمه . تميز سلوكه فى العام الذى قضاه عند عمه بالانطواء الشديد وهربه المستمر إلى خالته نظراً لأن أمه قد تزوجت فى بلدة أخرى . ولعل الدافع إلى ذلك السلوك هو اختلاف معايير السلطة لأن عمه كان يلتزم معه اتجاهاً واقعياً بعكس اتجاه أمه . وعند ما عاد إلى أمه من جديد ، اتخذ نفس الاتجاه السابق الذى يمكن تلخيصه فى العبارة الآتية : إجابة جميع مايطلبه وإلا الثورة وقد تتخذ هذه الثورة مظاهر متنوعة كتهشيم أثاث البيت أو قذف المنزل بمن فيه بالطوب من الخارج . فكانت الأم تضطر إلى إجابة مطالبه وتشعره بحنان أكثر مما وقر فى ذهنه أن الثورة هى الوسيلة الوحيدة للإذعان لرغباته وأن أمه لا تستطيع أن تمنع عنه شيئاً لحبها إياه الذى ظهر فى تمييزه عن أخته الكبيرة التى كانت تكدح بدورها فى سبيل تربيته إذ كانت تخيط الثياب . وكان كثيراً ما يسمع أنه « رجل عائلة » من أمه وأخته . وانتهت دراسته عند المرحلة الابتدائية . وظل يعمل عند أقاربه إلى أن نجح فى الحصول على وظيفة حكومية . ولكنه مع

ذلك كان محتفظاً بنفس امتيازاته : الفوز بنصيب الأسد فى كل شيء والعناية المفرطة بمظهره . وكان يعتمد فى حل مشاكله على أمه . وتزوج فى سن الثلاثين . وكانت حياته الزوجية ينتابها الكثير من المنازعات . واتسم سلوكه بعدم الواقعية والأنانية . وكان يقارن بين زوجته وأمه صراحة أمام زوجته متهماً إياها بالأنانية وعدم الاعتناء برغباته ، وكان يود ، لا شعورياً ، من زوجته أن تعامله كأمه . وساعد على تعقيد الموقف ، أن أمه كانت تنحاز إلى جانبه دواماً فى منازعاته مع زوجته بل كانت تعمد فى الحال إلى إجابة جميع رغباته التى لا تقوم بها الزوجة . وانتهت القصة بطلاقه من زوجته الأولى بعد أن أنجب منها ثلاثة أطفال . ومن الغريب أن سلوكه فى معاملة أطفاله كان يتسم بالأنانية . ولقد استقينا هذه المعلومات دون اتصال مباشر بالشخص نفسه بل جمعناها من الأم والزوجة والأقارب . وتزوج هذا الشخص مرة ثانية وصح ما توقعناه من أن زواجه لن يكون ناجحاً بسبب وثاقة الارتباط الوجدانى بالأم . فلا تزال المشاحنات دائرة بينه وبين زوجته من ناحية وبين زوجته وأمه من ناحية أخرى . ولقد أدى هذا الموقف إلى أن عمد الزوج إلى التخلص من أمه وطردها من بيته إلا أنه سرعان ما يعود إليها طالباً منها الرحمة والمغفرة على ما جنت يداه . ويبدأ من جديد العراك على صورة أشد عنفاً وقوة .

ويظهر أثر التعلق الوجدانى الشديد بالأم فى حالة م . ش . وهو شاب يبلغ التاسعة عشرة من عمره . وكان يشكو من حصر نفسى شديد . وكان منطوياً على نفسه عزوفاً عن الحياة على الرغم من أنه كان فى سعة وبحبوحة من العيش . وكان دائم النقد للغير رامياً إياهم بالانقياد الأعمى لشهواتهم ، متهماً إياهم بالدناءة وإن تعففوا فلعلة وسبب . ولنتناول طفولته بالبحث : كان م . ش . الطفل الذكر الوحيد لأمه ولذلك كان محط عناية أمه وتدليلها المفرط فكانت تسرع فى الحال إلى إجابة جميع رغباته . كانت تشعره بالحنان والدفء وتلقى فى روعه أنه من طينة غير طينة البشر . فإذا ما اعتدى عليه طفل أثناء اللعب هوّنت عليه الأمر وأسبغت عليه من الحنان والعطف أضعاف ما كان يرجو ويأمل ، وإذا ما أتى سلوكاً غير مرغوب فيه تولت الدفاع عنه بحرارة وقوة . فأدرك الطفل أنها الملاذ مهما أخطأ ومهما اقترف من ذنب .

مات أبوه وهو فى السادسة من عمره . وتزوجت أمه بعد قليل . وصحب هذه الحالة تغير فى مركز الطفل . فبعد أن كان ينام فى نفس الحجرة التى تنام فيها

الأم انتقل إلى غرفة أخرى . وكان من الممكن أن يمر هذا التغير بسلام لولا الارتباط الوثيق بالأم والعناية المفرطة الشاذة التى كان يلقاها فيها . فأدرك الطفل أن أمه أصبحت لا توجه إليه نفس العناية التى كان يتمتع بها من قبل بسبب وجود زوج الأم الأمر الذى أدى به أن يشاكس هذا الرجل « الدخيل » أى زوج الأم . وقد حدث ذات مرة أن ركل زوج أمه بقدمه أمام غرفة النوم بالذات . فهو يعتقد إذن أن هذا « الدخيل » هو سبب الحرمان الذى لاقاه من الأم كما شعر فى الوقت نفسه أن أمه قد تنازلت عنه فى سبيل هذا الرجل . فأضمر لها العداوة.

وساعد على مضاعفة المشكلة ظهور أخت له . فاستقبلها استقبالا سيئاً . وأصبح يكن لزوج أمه مشاعر عميقة من الكراهية كما بدأت نزعاته العدوانية اللاشعورية نحو أمه تقوى وتشتد . ووجدت هذه المشاعر العدوانية مخرجاً لها فى صفوف الأذى والعقاب التى كان يتفنن فى إلحاقها بأخته لأمه . ولا يخفى علينا عمل الإبدال فى هذه الحالة . فكان يعمد إلى قفل الباب عليه وعلى أخته ويأخذ فى ضربها موجعاً حتى تنقذها من بين يديه أمه وتعمد إلى توبيخه . وكان يلجأ فى « تبرير » سلوكه إلى أن أخته تشاكسه . واستمر فى هذا السلوك العدوانى إلى أن بلغ السابعة عشرة من عمره . وعلى كل ، فقد كان سلوكه يمتاز بالاتجاه السادى المازوكى أى الرغبة فى إلحاق الأذى بالغير والرغبة فى أن يكون موضوعاً للأذى ، كأنما يشتق من هذا السلوك لذة .

ولعل السبب فى هذا الاتجاه الذى اتخذه الصبى هو شعوره بأن أمه قد تخلت عنه فجأة فأخذ يضمر نحوها مشاعر عدوانية لا يقوى على التعبير عنها نظراً لأن معايير الخلق لا ترضى عنها فاعتراها الكبت مع ما يصاحبها من مشاعر الذنب والحاجة إلى العقاب وارتدت إلى الذات وتفصحت فى صورة القلق النفسى الشديد . فالسبب فى هذا القلق هو تلك النزعات العدوانية التى ارتدت إلى الذات مع ما يصاحبها من مشاعر الذنب . . فالقلق النفسى كان بمثابة الوسيلة الدفاعية ضد هذه النزعات العدوانية العنيفة التى لم تجد إشباعاً بسبب القوانين الخلقية التى سنها المجتمع والتى يجد الصبى فى الاعتراف بها وسيلة تهدد كيانه وتحرمه من عطف الأم الذى يود شعورياً الاحتفاظ به . ومما يؤكد هذا التفسير ويدعمه أحلام الشاب التى كانت تدور حول التخلص من الأم بالذات وزوجها وابنتها . وهاك أحد الأحلام : حلم الشاب أنه اشترى سيارة من أمريكا وشحن أجزاءها فى طائرة ولكن الطائرة وقعت

فى البحر وتحطمت . وهاك الأفكار التى كشف عنها التداعى بالنسبة للسيارة : ذكر أنه يتوق إلى شراء سيارة ثم ذكر بانفعال صعوبة أن « أخا لزوج أمه » قد مات فى طريقه إلى بلدته أثناء نقله وهو مريض من المستشفى الذى كان يعالج به من مرض صدرى خطير . وهنا وضح معنى الحلم . فما لا شك فيه أن « أخا زوج الأم » إنما هو « بديل » عن زوج الأم الذى يود أن يتخلص منه . والإبدال ميكانيزم من الميكانيزمات التى يتنكر فيها المضمون الكامن للحلم لكى يظهر فى المضمون الصريح . فانتقلت رغبة التخلص من « زوج الأم » إلى أخيه . فكما مات أخو زوج الأم فى سيارة فليمت زوج الأم كذلك . وواضح أيضاً أن « الطائرة » إنما ترمز إلى الأم . فكأن المعنى الذى يهدف إليه الحلم هو التخلص من زوج الأم والأم معاً كما يشير أيضاً إلى التخلص من أخته لأمه لأن أخته جزء أو بعض من أمه وزوج أمه . وقد تكون الرغبة فى التخلص من الأم مدعاة للغرابة . ولكن الغرابة تزول إذا ما عرفنا هذه النزعات العدوانية اللاشعورية الموجهة إليها وإن ظهر الحب الشديد من جانب الشاب لأمه .

تزوج هذا الشاب . وكان يشعر نحو زوجته بشىء من الهيبة والوجل فى وقت الجماع . وهذا مما يكشف عن أن الشاب لم ينجح فى حل الموقف الأوديبى على نحو سوى كما يبين أيضاً عن التثبيت بالنسبة للأم وكان يوحد ويطابق . لا شعورياً بين زوجته وأمه . وانتهت قصة هذا الزواج بالفشل بعد ستة شهور .

والحق أننا إذا تأملنا عاطفة الحنو التى تربط الأب بابنته أو الأم بابنها لوجدنا فيها أثراً جنسياً . ولكن ليس معنى هذا أننا نقول بدناسة هذه العلاقة . ولكن معرفة حقيقة هذه العلاقة قد تنير الطريق أمامنا فى بحث الحالات الشاذة التى تتدرج من زواج كهل بفتاة لاتزال فى عمر ابنته إلى إتيان الأب للفعل الجنسى مع إحدى بناته . ولعل ما سبق ذكره يكفى للدلالة على فساد رأى الذين ينصحون بالزواج كعلاج للحالات النفسية المنحرفة . والذين يذهبون إلى أن إنجاب الأطفال خير ما يعمل على إصلاح الجو المتوتر بين الزوجين . إن العلاج الصحيح لهذه المشاكل هو التحليل النفسى وحده . وخير وقاية من هذه الانحرافات الزوجية هو العمل على نشر الثقافة النفسية بين أفراد الشعب وعن طريق الفحص السيكولوجى لراغبى الزواج

كمال الدين عبد المجيد نابل

Résumé :

K. A. Nayel

Influence de la relation entre les parents et l'enfant sur le mariage de ce dernier

L'auteur expose deux cas de mariage malheureux suivi de divorce. La présentation de ces deux cas est précédée d'un court exposé sur la situation œdipienne et spécialement sur la relation entre l'enfant et sa mère et sur le lent développement des liens affectifs entre les deux sous l'effet de facteurs biologiques et psychologiques. La situation se complique par la présence de frères plus grands qui partagent l'amour de la mère ou par la naissance d'un nouvel enfant. C'est vers l'âge de trois ans que s'accentue le sentiment qu'éprouve l'enfant de la précarité de son statut affectif. La situation œdipienne ajoute à son tour au désarroi de l'enfant, désarroi qui varie en modalité et intensité selon le sexe de l'enfant.

Le trop grand attachement de la mère à l'enfant arrête le développement affectif de ce dernier et l'empêche d'atteindre à la maturité émotionnelle. La mort du père peut accentuer la dépendance affective de l'enfant vis à vis de la mère. Les effets de la fixation de l'enfant à sa mère se font sentir quand le sujet, devenu adulte, se marie. Il cherche dans sa femme un substitut de la mère et ne le trouve pas. Son infantilisme affectif, tel un obstacle insurmontable, l'empêche d'endosser ses responsabilités d'époux et de père.

Lez deux cas analysés dans cet article illustrent d'une manière typique les considérations qui précèdent. L'auteur relève en terminant l'erreur grossière qui consiste à croire que le mariage constitue une thérapeutique de certaines névroses, ou que la naissance des enfants doit nécessairement contribuer à diminuer la tension qui existe entre deux époux. Ce qu'il faudrait instituer pour parer en partie aux suites malheureuses d'une situation œdipienne non liquidée, c'est l'examen psychologique prénuptial.

سيكوباثولوجيا السحر والتطير

بقلم

نجيب يوسف بدوى

المدرس بطنطا الثانوية للبنات

« متى دخلت الأرض التى يعطيك الرب إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم . لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته فى النار ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جاناً أو تابعة ولا من يستشير الموتى . لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب . » التوراة – تثنيه ، أصحاح ١٨ .

سبق أن اقترحنا على صفحات هذه المجلة ، عمل اختبار للتطير [١] ، لتحديد علاقة التطير بالشخصية . وبدأنا الخطوات التمهيدية لتقدير سمتى التفاؤل والتشاؤم فى التطير [٢]. وبينما نحن بسبيل إعداد اختبار التطير ، استلفتت نظرنا العلاقة الوثيقة بين التطير والسحر . ولما بحثنا السحر [٣] ، زادت هذه العلاقة وضوحاً الأمر الذى حدا بنا أن نضمن اختبار التطير أمثلة للاعتقاد فى السحر ، وأمثلة للاعتقاد فى العرافة أو فى استطلاع الغيب كذلك . وهذا المقال تبرير لذلك وتكملة للمقالات السابقة التى تعتبر جميعها بمثابة الأساس النظرى للاختبار ، الذى أصبح اختباراً للعرافة ، والسحر ، والتطير ، (أى التشاؤم) ، والتفاؤل . وفيما يلى سنوضح أولا : العلاقة بين السحر والتطير . ثانياً : العلاقة بين كل منهما والعصاب من ناحية ، ونماذج الشخصية من ناحية ثانية . ثالثاً : علاقة السحر والتطير بالشخصية وهذا المقال عبارة عن دراسة تركيبية Synthetic study يراد بها توضيح العلاقات النسبية ، والارتباطات المحتملة بين التطير ، والعصاب القهرى ، والنموذج المنطوى من

(١) « سيكولوجية التطير » فى مجلة علم النفس عدد يوليو سنة ١٩٤٩ مجلد ٥ .
(٢) « اختبار للتطير » فى مجلة علم النفس عدد أكتوبر سنة ١٩٤٩ مجلد ٥ .
(٣) « السحر » فى مجلة علم النفس عدد يوليو سنة ١٩٥٠ مجلد ٦ .

ناحية ، وبين الاعتقاد فى السحر ، وافستيريا ، والنموذج المنبسط من ناحية ثانية . كما أنها دراسة تمهيدية أو تفسيرية لأخرى تجريبية خاصة بالاختبار المقترح للعرافة والسحر والتطير ، قد تكون مساهمة إيجابية فى الكشف عن عامل طائفى ، هو العامل الرمزى Symbol Factor

علاقة السحر بالتطير

ونقصد بالتطير هنا المعنى اللغوى له ، أى التشاؤم[1] — والتشاؤم لا من الرموز والعلامات وحسب ، بل التشاؤم من أعمال معينة بصفة خاصة . ويمكن أن نجمل علاقة السحر بالتطير فى الروابط التالية :

أولا : يعتبر فريزر[2] السحر ناحية إيجابية ، على حين أنه يعتبر التابو Taboo ناحية سلبية . والتابو هو المحظور أو المحرم . هو الامتناع عن إتيان أعمال معينة ، خوفاً من نتائجها السيئة أو الخطرة المزعومة . والامتناع عن إتيان هذه الأعمال والتشاؤم والخوف منها هو من قبيل التطير . والتطير ، أو الإحجام عن الوقوع فى هذه المحظورات أو التابوات ، لا يقوم على أى أساس من التفكير المنطقى . وينبغى ، لكى نفهم علاقة السحر بالتطير على حقيقتها فى تقسيم فريزر ، أن نميز بين التطير من الرموز ، والتطير من الأعمال . فالتابو ، الذى يعتبره فريزر ناحية سلبية للسحر ، هو التطير والامتناع عن إتيان أعمال معينة . أو بعبارة أخرى ينبغى أن نفرّق بين التشاؤم من رموز وعلامات الفأل الردىء ، كالبومة ، والغراب ، والمرآة المكسورة مثلا . . . من ناحية ، والامتناع عن إتيان أعمال معينة خوفاً من توهم نتائج ضارة أو خطرة لها ، من ناحية أخرى . وهذه الناحية الثانية هى التابو الذى اعتبره فريزر ناحية سلبية للسحر . ويمكننا أن نتعرف على كثير من التابو فى الميثولوجيا المصرية . فمن أمثلة ذلك التطير ، أو الإحجام عن الوقوع فى المحظورات أو التابوات الآتية : كنس المنزل ليلا — فتح المظلة داخل المنزل — تحريك المقص سريعاً فى الهواء ، دون أن يقص شيئاً — ترك المبراة مفتوحة —

---

(١) إذا كنا قد تجاوزنا هذا المعنى اللغوى فى مقال « اختبار التطير » فذلك لأننا رجعنا إلى جانب النذر التى تدعو إلى التشاؤم ، بشائر تدعو إلى التفاؤل كذلك ، ولذا تضمن الاختبار أمثلة لهذين النوعين .

(٢) J.G. Frazer: Magic and Religion. London; Watts, 1944. P. 32.

المرور من أسفل السلم الخشبى الموصد إلى الحائط — الدخول على السيدة المتزوجة حديثاً أو التى قامت من الوضع حديثاً ، بمصاغ من الذهب أو بعقد من العقيق . أو بلحم ضبيء أو بباذنجان . . . وهو ما يعرف عند العامة (بالكبس) . عياف هذه الأعمال وأمثالها [١] . والإحجام عن الوقوع فى هذه المحظورات ، هو التطير من التابو الذى اعتبره فريزر ناحية سلبية للسحر .

وهدف السحر هو الحصول على النتائج المرغوبة بتقليدها وتمثيلها . أما هدف التابو — أو السحر السلبى ، كما يسميه فريزر — فهو تجنب نتائج سيئة أو خطرة مزعومة ، وذلك بالامتناع عن إتيان أعمال معينة . هذا إذا أخذنا بالغرض . أما إذا أخذنا بالدوافع ، وجدنا دوافع السحر والتطير هى ذاتها دوافع المعتقدات الزائفة أو الهذيان Delusions . وفى ذلك يذكر مكدوجل [٢] أنه يمكن تقسيم كل المعتقدات الزائفة أو الهذيان إلى قسمين كبيرين : هذيان الرغبة delusions of desire وهذيان الامتناع delusions of aversion والسحر يفصح عن رغبة ، على حين ينم التطير عن رهبة . وفى ذلك يذكر فرويد [٣] أن الدافع إلى الالتجاء إلى السحر هو الرغبات « يقوم الرجل البدائى بتمثيل وتقليد الرغبة التى تجيش بها نفسه ، حتى يحض الطبيعة على أن تقلد فعلته » . وينم التطير عن رهبة لقوات غيبية ، وعن خوف من الشر المستطير ، الذى يحيق بمن يستخف بالتابو أو يقع فى المحظور .

ثانياً : السحر والتطير كلاهما استجابات مكتسبة شرطية ، وقد لمس فريزر فى كل من الناحيتين الإيجابية ، أى الطقوس السحرية ، والسلبية أى التطير من التابو ، التطبيق الخاطىء لمبدأى : ترابط الأفكار بالاقتران ، وترابط الأفكار بالتشابه . وقد رأينا ، فى مقال « السحر » ، أن الشرطية تعتبر مكملة لنظرية فريزر

---

(١) اقتصرنا على ذكر أمثلة للتطير من البيئة المصرية والشرقية ، وهى جزء من الأمثلة التى يتضمنها الاختبار . وإذا نظرنا إلى التطير فى ضوء الأنثروبولوجيا ، وجدنا نظائر لهذه التطيرات والخرافات والرموز ، منتشرة بين الجماعات البدائية المعاصرة ، كما لا تخلو منها تماماً المجتمعات الحديثة الراقية . ولكل جماعة تطيراتها وخرافاتها الخاصة بها كما أن هنالك قدراً مشتركاً متشابهاً من هذه الخرافات والتطيرات ، بين بعض الشعوب . وقد عنى فريزر بتصنيف أمثلة عديدة لهذه التطيرات ، من عصور مختلفة ، وشعوب مختلفة تحت عناوين خاصة ، فى دراسته المقارنة للسحر والتابو ، فى كتابه « الغصن الذهبى »

(٢) W. McDougall: "An Outline of Abnormal Psychology"; London, Methuen, Sixth Edition, 1948, Ch. XX. P. 333.

(٣) S. Freud: "New Introductory Lectures on Psycho-Analysis"; Hogarth Press, 1933, P. 211.

الترابطية للسحر ، وأن النموذجين الرئيسيين اللذين استخلصهما فريزر للطقوس السحرية وهما : السحر بالاقتران ، والسحر بالتقليد ، يقابلان ناحيتين متكاملتين فى ميكانيزم الشرطية ورمزيتها ، ويتوفر فيهما الشرطان اللازمان لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية . وهذان الشرطان هما : الجزء الذى يرمز للكل ، فى السحر بالاقتران ، والتكرار للتثبيت ، فى السحر بالتقليد – وفى الحياة العملية يوجد النوعان معاً . كما أن النزعات المكبوتة فى اللاشعور ، هى التى تجعل للعناصر المرتبطة مغزى رمزياً أو مغزى لاشعورياً . كذلك . حاولنا ، فى مقال « اختبار للتطير » إثبات طريقة اكتساب التطير على أساس الفعل المنعكس الشرطى . ومن المعروف أن كثيراً من أعراض العصاب – كالأمراض الهستيرية مثلا – تفسرها الشرطية .

ثالثاً : المبدأ الذى يتحكم فى كل من السحر والتطير هو « القوة المطلقة للفكر » omnipotence of thought أى المغالاة فى تقدير الفكرة النفسية فى الداخل ، إذا ما قورنت بما يقابلها من حقيقة الواقع فى الخارج . وهذا المبدأ ذاته تتسم به الحياة النفسية للعصابيين . فهو من أعراض « العصاب القهرى » . ويذكر فرويد (١) أن أعراض هذه « القوة المطلقة للفكر » لا تقتصر على حالات « العصاب القهرى » وحسب بل إنها تميز أنواعاً أخرى من العصاب . والذى يعنينا من هذه الأنواع الأخرى ، فى هذا البحث بصفة خاصة ، هو الهستيريا .

رابعاً : للإيحاء دخل كبير فى كل من التطير والاعتقاد فى السحر . وقد رأينا فى مقال « اختبار للتطير » أن الحالات الخفيفة من التطير من رموز وعلامات الفأل الردىء ، هى البذور الأولى للانحراف التى تغرسها القدوة السيئة والبيئة المنزلية . وأن هذه الحالات الخفيفة تكتسب بالإيحاء (أو بالمحاكاة) عن الوالدين خاصة ، ومن البيئة المنزلية عامة . وليس من شك كذلك فى أن الاعتقاد فى السحر والجن والأسياد لحمته وسداه الإيحاء ، سواء كان إيحاء ذاتياً أو إيحاء خارجياً . ومن المعروف أن القابلية للإيحاء من العوامل الاستعدادية لبعض أنواع العصاب ، كالهستيريا مثلا . كما أنه من المعروف كذلك أن عامل الإيحاء ، يدخل كعامل مساعد فى العلاج النفسى .

خامساً : يشترك السحر والتطير فى الرمزية ، وإذا بدت الرمزية فى الأحلام وفى الأساطير وفى الظاهرات الباثولوجية ، فهى تبدو كذلك فى السحر والتطير

(١) S. Freud: Totem and Taboo, Pelican, P. 121.

والعرافة ، وفى المعتقدات والعادات الغريبة التى تدخل فى عداد ما يُطلق عليه علماء المدرسة التطورية فى الأنثروبولوجيا اسم « البقايا » survivals ، تلك « البقايا » المختلفة من عصور قديمة ، والتى لا يخلو منها شعب من الشعوب . وإذا ما تناولنا بالبحث أية مشكلة من هذه المشاكل كالسحر أو التطير أو الأساطير أو « البقايا » فى ضوء المنهج التكاملى أو فى ضوء المدارس الأنثروبولوجية والسيكولوجية المختلفة ، فستظل مشكلة الرمزية ماثلة تتطلب الحل ! . أو بقول آخر مهما تكن الطريقة التى نصطنعها ، سواء أكانت توزيعية أو تطورية ، وظيفية أو سيكو تحليلية ، فستؤدى بنا خاتمة المطاف إلى الرمزية . فهى حجر الزاوية أو هى قطب الرحى فى هذه المشاكل . فالرمزية هى العامل المشترك بين هذه الظاهرات جميعها ، هى النواة التى لا بد من مواجهتها وحلها .

وإلى هذه الغاية ، خصص يونج قسطاً وفيراً من عنايته . فهو يرجع هذه الرموز التى تبدو فى الأحلام وفى الأساطير وفى العادات الأولية البدائية وفى السحر (والتطير) ، إلى « النماذج الأصلية القديمة » « Archetype » أو « الصور البدائية » « Primordial images » وكلها من نتاج « اللاشعور الجمعى » « collective unconscious »

« فالأفكار الأولية الغامضة كالسحر والأرواح والجن والتنين والشياطين . . . كلها حقائق أولية قد فرضت نفسها على الفكر النوعى حتى أنها تنظر دائماً كرموز فى فكر الحاضر . »(١) ويبدو لنا أن أفكار يونج لم تلق بعد ما هى جديرة به من عناية المشتغلين بعلم النفس فى مصر (٢). وما ينبغى أن نستخف بفكرة يونج عن اللاشعور الجمعى وعن الصور الأزلية الفطرية البدائية . فيوجد من الأدلة ما يحملنا على أن ننظر إلى هذا الفرض بعين الاعتبار ، ولنا عود على مساهمة يونج فى الشطر الأخير من هذا المقال .

سيكوباثولوجيا السحر والتطير

وهكذا تشير كل من هذه الروابط بين السحر والتطير إلى علاقات أخرى

---

(١) « مدارس علم النفس المعاصرة » تأليف ودورث ، وترجمة كمال دسوقى منشورات جماعة علم النفس التكاملى . ص ٢٥٧

(٢) ما تزال المكتبة العربية بحاجة إلى كتاب فى « علم النفس التحليلى » ليونج على غرار كتاب الدكتور إسحق رمزى فى علم النفس الفردى » لأدلر .

بين كل منهما والعصاب . ويمكن تلخيص الخصائص المشتركة التى سبق ذكرها بين السحر والتطير ، وبين كل منهما فيما يأتى : —

١ — السحر ناحية إيجابية ، ويفصح الاتجاه إليه عن رغبة ، والتطير من التابو ، ناحية سلبية ، وينم عن رهبة . وقد يقابل السحر « هذيان الرغبة » ويقابل التطير « هذيان الامتناع » فى تقسيم مكدوجل للهذيان

٢ — وكما أن الشرطية تفسر الكثير من أعراض العصاب ، ولا سيما الهستيريا ، فهى تلقى كذلك ضوءا على طريقه اكتساب التطير والاعتقاد فى السحر ، فى الحالات المتوسطة والمتطرفة من كل منهما .

٣ — « القوة المطلقة للفكر » هو المبدأ الذى يتحكم فى كل من السحر والتطير . وهو المبدأ ذاته الذى تتسم به الحياة النفسية للعصابيين .

٤ — يدخل عامل الإيحاء فى كل من التطير والسحر . كما يدخل كذلك فى الاضطرابات الوظيفية (اكتسابها ، وعلاجها)

٥ — الرمزية عامل مشترك بين الظاهرات الغيبية ، والظاهرات الباثولوجية . وكما تبدو الرمزية فى الأحلام وفى الاساطير ، فكذلك تبدو فى العرافة والسحر والتطير .

وإذا أخذنا فى الاعتبار أن الفرق بين العصابى والسليم هو فرق فى الدرجة ، سهل علينا إدراك المقصود من اعتبار الاعتقاد فى السحر والتطير ظاهرات باثولوجية أى مرضية . وتلوح الاضطرابات العصابية لنا ، كأننا ننظر إليها وهى تحت المجهر ، فتبدو مكبرة . وهنا نظائر بصورة مصغرة لدى الأشخاص العاديين الذين نصادفهم فى الحياة اليومية . فلا يوجد ، حينئذ خط حاد يفصل بين الشذوذ والسواء وإنما الانتقال بينهما تدريجى . والاختلاف بينهما كمى .

وعلى الرغم من أن الفرق بين السليم والعصابى فرق فى الدرجة ، إلا أن هنالك نوعين أساسيين من العصاب هما : الهستيريا ، والعصاب القهرى .

وفى مقال « اختبار للتطير » أمكننا أن نتبين الأعراض الشاذة التى صادفها فرويد لدى المصابين « بالعصاب القهرى » بدرجة أقل لدى الأشخاص العاديين المتطيرين (فى الحالات الخفيفة ، والحالات المتوسطة — أى المشروطة — من التطير) . فالعصاب القهرى يقع فى نهاية الدرجات التى تعتبر بدايتها حالات خفيفة . وقد يبدو لنا أن نتساءل إذا كانت الحالات المتطرفة من التطير من التابو

تدخل فى عداد العصاب القهرى ، فهل من علاقة بين الاعتقاد فى السحر — فى الحالات المتطرفة منه — والهستيريا ؟

وإلى فرويد يرجع الفضل فى إثبات العلاقة بين العصاب القهرى والتابو . وقد خصص شطراً كبيراً من كتابه «الطوتم والتابو» لإثبات هذه العلاقة . فأورد أمثلة عديدة للتابو بين الجماعات البدائية المعاصرة ، نقلا عن كتاب « الغصن الذهبى » لفريزر ، وأمثلة أخرى من بين المصابين بالعصاب القهرى . ووازن بين الأعراض فى الحالتين ، فوجد من الخصائص المشتركة بينهما ، ما دعاه إلى أن يطلق على العصاب القهرى اسم مرض التابو « Taboo disease »[1] . وسنبدأ نحن من حيث انتهى فرويد . ومعنى ذلك التسليم ضمنا بأن هذه العلاقة التى أوجدها فرويد صحيحة . وسنعمل من جانبنا على أن نوضح العلاقة المحتملة بين الاعتقاد فى السحر — فى الحالات المتطرفة منه — والهستيريا . وإذا ما اكتملت العلاقة بين السحر والهستيريا من ناحية ، وبين التطير من التابو والعصاب القهرى من ناحية أخرى ، سهل ربطهما بالتالى بنماذج الشخصية ليونج.

يطلق فرويد اسم « العصاب التحولى » « Transference neuroses » على هذين النوعين من العصاب : الهستيريا والعصاب القهرى . وفيما بين هذين النوعين علاقة . ويتوقف الميل أو الاتجاه إلى أحد هذين النوعين أو إلى الآخر ، على التأثير النسبى لكل من الدوافع المكبوتة . والقوى الكابتة . ففى حالات الهستيريا تبدو وكأنما تغلبت الدوافع المكبوتة . أما فى حالات العصاب القهرى فتظهر أعراض المغالاة فى الضبط والقمع ، وكأنما تغلبت القوى الكابتة . يبسط فلوجل هذه العلاقة النسبية فى جلاء تام يقول : « يبدو العرض العصابى دائماً كنتيجة للصراع العقلى كما يبدو وكأن هذا العرض العصابى نفسه حل توفيقى وسط compromise بين القوى المتعارضة فى الصراع . ولا يقابل هذا الحل الوسط بالارتياح الدائم من أى الفريقين المتصارعين ، شأنه فى ذلك شأن معظم الحلول الوسطية . كما يبدو العرض العصابى كنتيجة لمحاولة الكبت ، ولكنها محاولة لا تنجح سوى نجاحاً جزئياً فقط (فلا تلبث النزعات المكبوتة أن تجد طرقاً ملتوية للافلات ، أو طرقاً رمزية ترمز

---

(١) S. Freud: Totem and Taboo. Pelican, P. 47. — لا نجد ما يدعو إلى تلخيص هذه الموازنة ، إذ قد سبقنا إلى ذلك الأستاذ أبو زيد فى مقاله « التحليل النفسى للعقل البدائى » فى مجلة علم النفس عدد فبراير سنة ١٩٤٦ مجلد ١

للصراع) . ويختلف التأثير النسبى لكل من القوى الكابتة والنزعات المكبوتة من عرض إلى آخر وهذا الاختلاف يميز إلى حد ما الأنواع المختلفة للأمراض العصابية التى يمكن تشخيصها . وعلى ذلك فى اهستيريا (سواء أكانت الأعراض أساساً عقلية كما فى اهستيريا المسماه « الحصرية » ، أو أساساً جسمية أو حسية كما فى « الهستيريا التحولية » (يكشف تحليل الأعراض عن التعبير المقنع للرغبات المكبوتة على حين تبدو الأعراض فى « العصاب الوسواسى » (وفيه تتسلط على المريض أفكار أو أفعال قهرية) وكأنها معالاة فى قمع الرغبات المكبوتة . وعلى ذلك فهى تفصح أساساً عن القوى الكابتة للعقل »[١]

تلك هى العلاقة النسبية بين اهستيريا والعصاب القهرى هى علاقة يمكن تمثيلها بخط مستقيم . لأنها علاقة استقطاب بحسب التأثير النسبى للدوافع المكبوتة أو القوى الكابتة . وبينهما تواصل .

وهذان النوعان من العصاب ، على علاقة بنماذج الشخصية ليونج . فالهستيريا — فى رأى يونج[٢] — هى العصاب الأكثر شيوعاً لدى النموذج المنبسط . على حين أن « المرض النفسانى الذى يكون المنطوى معرضاً له بطريقة خاصة هو الوسواس »[٣] أو العصاب القهرى .

ولقد أفرد مكدوجل ، فى كتابه « تخطيط علم النفس المرضى » فصلا عن العلاقة بين نماذج يونج والاضطرابات الوظيفية . وهو يربط بين الانطواء والنورستانيا والفصام من ناحية ، والانبساط واهستيريا والهوس من ناحية أخرى . وهو يحذرنا من اعتبار الحالات المتطرفة من هذه النماذج ذاتها حالات عصابية . « حتى الحالات المتطرفة من هذه النماذج لا تتعارض مع الصحة والسواء . فقد يكون الحالم الخجول (يقصد الانطوائى) غير عملى وشارد الذهن ، ومحلقا دائماً بعقله بين النجوم ولكنه لا يشترط أن يكون شاذاً أو مجنوناً . وكذلك قد يتسم سلوك الانبساطى المتطرف بالتهور والتسرع وقد تكون انفعالاته عنيفة وغير متحكم فيها نسبياً . ولكنه مع ذلك يظل فى حدود السواء . وإذا كانت العلاقة ولا شك وثيقة بين

---

(١) J.C. Flugel: "Theories of Psycho-Analysis"; In Essay form in "An Outline of Modern Knowledge"; Longon, Gollancz, 1933. P. 370.

(٢) C.G. Jung: "Psychological Types"; London: Kegan Paul, 1933. P. 421.

(٣) الدكتور يوسف مراد : « مبادىء علم النفس العام » ص ٣٤٩ الناشر دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٤٨

النماذج المتطرفة والاضطرابات الوظيفية أى بين الانطواء والنورستانيا والفصام من ناحية ، والانبساط والهستيريا والهوس والاكتئاب manic-depressive من ناحية أخرى ، فيرجع ذلك إلى قابلية هذه النماذج لمثل هذه الاضطرابات . وينبغى ألا يؤدى بنا ذلك إلى اعتبار الحالات المتطرفة من هذه الصفات المزاجية ذاتها ، عصابية »(١)

لتصنيف مكدوجل المزدوج هذا للاضطرابات الوظيفية ، نظائر فى تصانيف غيره من العلماء . كتصنيف سيرل برت (٢) C. Burt الثنائى للاضطرابات العصابية إلى (١) اولئك الذين يتميزون بنزعات القوة والتظاهر . (٢) واولئك الذين يتميزون بنزعات الوهن والكف . وكتصنيف الأستاذ الدكتور يوسف مراد للاستجابات الشاذة على أساس الاستجابة التوافقية ، فى كتابه « شفاء النفس » إلى : (١) أساليب الاعتداء والتبرير . (٢) وأساليب النكوص والتعويض . . . وليس من شك فى أن العلاقة وثيقة بين التصانيف المختلفة ، سواء فى ذلك تصانيف الأمراض العصبية الوظيفية أو تصانيف النماذج . فمن المعلوم أن لنماذج يونج نظائر فى نماذج غيره من العلماء مثل نماذج كاتل Catell ، وكرتشمر E. Kretchmer . . .

. . . ولقد اقتصرنا على أشهر هذه التصانيف وأكثرها تداولا . وسنعمل على ربط الحالات المتطرفة من الاعتقاد فى السحر ، بالهستيريا ، وبالنموذج المنبسط من ناحية ، والتطير ، بالعصاب القهرى ، بالنموذج المنطوى من ناحية أخرى . وهذا الربط يفتح الطريق أمام ارتباطات أخرى ، وعلاقات أخرى بين السحر والتطير والتصانيف الأخرى للنماذج أو للصعاب .

من المعلوم أن الأعراض العصابية تظهر نتيجة للصراع العقلى والكبت . وأن النزعات والأفكار التى تكبت ، هى فى معظم الأحوال جنسية أو عدائية . وقد اهتمت أبحاث العشرين سنة الأخيرة فى التحليل النفسى — كما يقول إرنست جونز — بالنزعات العدائية ، اهتماماً فاق اهتمامها بالنزعات الجنسية . وليس فى ذلك فريزر : فالسحر إيجابى يرتبط بموضوعات خارجية أو بحوادث يراد تحقيقها فى

---

(١) W. McDougall: An Outline of A bnormal Psychology. P. 448.

(٢) راجع الترجمة العربية لمقال سيرل برت بعنوان « تقدير الشخصية » فى عددى يوليو واكتوبر سنة ١٩٤٧ من مجلة علم النفس .

ذلك ما يدعو إلى الدهشة ، حيث أن فرويد قد درس ، فى السنوات الأولى للتحليل النفسى ، النزعات الجنسية دراسة تفصيلية ضافية . والدوافع اللاشعورية لكل من السحر والتطير واحدة ، هى النزعات العدائية القاسية المكبوتة . والسحر مظهر إيجابى لهذه الدوافع وإفصاح عنها فى الخارج ، والتطير مظهر سلبى لها ، وقمع لها فى الداخل .

وإذا استرجعنا السمات أو الصفات التى نحاول إيجاد العلاقات بينها ، وجدنا كل زوج منها يمكن تمثيله بخط مستقيم أو تمثيله على طرفى « مستوى تقدير » . وبذلك يكون عندنا مستويات ثلاث : السحر ويقابله التطير من التابو — الهستيريا ويقابلها العصاب القهرى — النموذج المنبسط ويقابله النموذج المنطوى . وإذا ما وضعت هذه المستويات الثلاث جنباً إلى جنب بدت كخطوط أفقية متوازية . على أن العلاقات بين الأطراف ليست أفقية فحسب بل رأسية كذلك . فهى حينئذ علاقات شبكية ، يمكن توضيحها على النحو الآتى : (راجع الشكل التخطيطى التالى)

١ — أخذنا — بادىء ذى بدء — بتقسيم فريزر : السحر ناحية إيجابية ، وطقوسه يراد منها الحصول على النتائج المرغوبة بتقليدها وتمثيلها . والتطير من التابو ناحية سلبية ، هو امتناع عن إتيان أعمال معينة خوفاً من نتائجها السيئة أو الخطرة المزعومة .

٢ — وقد أثبت فرويد العلاقة الوثيقة بين التطير من التابو والعصاب القهرى ، وهو يطلق اسم « مرض التابو » على العصاب القهرى .

٣ — ورأينا أن فلوجل يعتبر الهستريا من أعراض تغلب النزعات المكبوتة ، على حين يشير العصاب القهرى — فى علاقته النسبية بالهستيريا — إلى تغلب القوى الكابتة للعقل .

٤ — كما رأينا أن يونج يعتبر الهستيريا ، العصاب الأكثر شيوعاً لدى النموذج المنبسط . والعصاب القهرى هو العصاب الأكثر شيوعاً لدى النموذج المنطوى .

والانبساطى ، إيجابى منقلبه إلى الخارج ، قد نفذ ميله واهتمامه إلى العالم الخارجى . والانطوائى ، سلبى منقلبه إلى الداخل ، ميله نحو الفرد ذاته . إلى جانب هذه الحقائق نضع العلاقة النسبية بين السحر والتطير من التابو فى تقسيم الخارج . على حين أن التطير — فى علاقته النسبية بالسحر — سلبى ، هو خوف

وتشاؤم وقمع فى الداخل . أو كأنما نحسرت فيه الطاقة النفسية أو الليبيدو من الموضوع الخارجى وارتدت نحو الداخل أى نحو الفرد ذاته ، وهذا — إذا أخذنا برأى يونج [١] — شيمه الانطوائى .

وإذا كان فرويد قد أثبت بما لا يدع مجالا للشك العلاقة الوثيقة بين التطير من التابو والعصاب القهرى . . . . وهو العصاب الأكثر شيوعاً لدى النموذج المنطوى فإنه يسهل علينا ، فى ضوء العلاقات الشبكية أو العلاقات النسبية السابقة ، اعتبار السحر وهو تعبير فى الخارج عن رغبات كامنة ، عرضاً هستيرياً ، يلجأ إليه ويعتقد فيه ويتأثر به من تغلب عليه سمة الانبساط .

ويمكن أن نوضح العلاقات الشبكية أو العلاقات الوظيفية التى نفترضها ، فى الشكل التخطيطى الآتى ، ويقرأ بحسب ترتيب الأرقام : (١) فريزر (٢) فرويد (٣) فلوجل (٤) يونج . . . التى ورد ذكرها فى المناقشة السابقة .

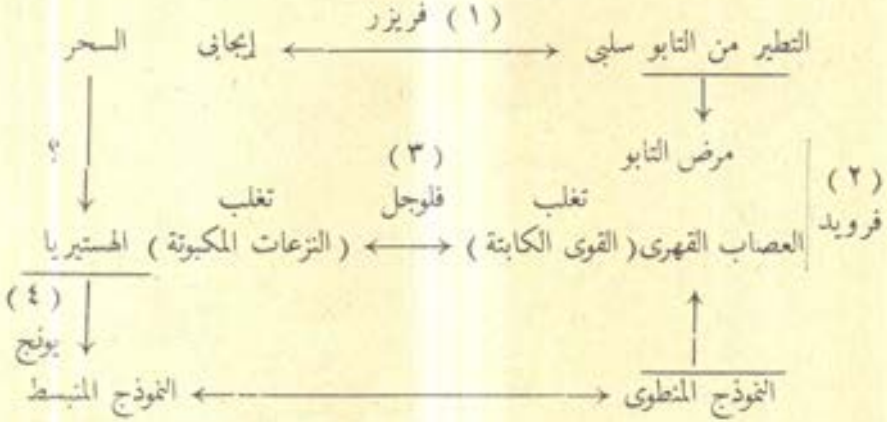

وإذا أمعنا النظر فى هذا الرسم التخطيطى ، واسترجعنا المناقشة السابقة ، ألحت علينا الرغبة فى إغلاق الدائرة بإكمال الخط المنقوط . وذلك بأن نعتبر الاعتقاد فى السحر — فى الحالات المتطرفة منه — عرضاً هستيرياً .

إلى جانب هذا الطريق الملتوى غير المباشر ، توجد أدلة أخرى مباشرة تشير من أقصر طريق إلى وجود هذه العلاقة بين الحالات المتطرفة من السحر : الاعتقاد

---

(١) Jung: Psychological Types. P. 558.

فيه ، والالتجاء إليه ، والتأثر به ، والهستيريا . وقبل أن نذكر هذه الأدلة المباشرة ، علينا أن نأخذ فى الاعتبار . الخصائص المشتركة بين السحر والتطير ، وبين كل منهما والعصاب . التى أوردناها مفصلة فى صدر هذا المقال ، وهى الخصائص التى تبدو فى : الهذيان ، والشرطية ، والقوة المطلقة للفكر ، والإيحائية ، والرمزية . والأدلة المباشرة الباقية التى يشترك فيها السحر مع الهستيريا أهمها اثنان هما : (١) النزعات العدائية والجنسية ، (٢) الإيحاء .

أولا : بعد أن جمعت أمثلة للاعتقاد فى السحر ، لتضمينها اختبار التطير ، ونظرت فى هذه الأمثلة ، وجدتها تنم عن نزعات عدائية أو جنسية [١] . فإذا أخذنا بالوظيفة وبالغرض ، بدا لنا أن وظيفة الدجال أو الساحر هى تحقيق الرغبات التى هى فى جوهرها إما عدائية أو جنسية . والمترددون على الساحر غرضهم كذلك مساعدته لهم على حل هذه المشكلات التى هى دائماً أبداً جنسية — كما كان يقول شاركو — دائماً عدائية . أو هى إن لم تكن عدائية صريحة ، أى إن لم تكن ترمى إلى إيذاء الغير ، فهى ترمى إلى درء الإيذاء الذى وقع على النفس من الغير . والتحليل النفسى يرى الحالين صنوين : لأن الاعتقاد فى أن الغير يكيد لك ويعمل على إيذائك ، حتى ليسخر الجن لهذا الإيذاء ، هو نتيجة لنزعاتك العدائية القاسية المكبوتة نحوه . وفى ذلك يفكر مكدوجل : « إن العداء الذى يشعر به المريض بالبارانويا ، واعتقاده فى كيد الغير له ، هو انعكاس لنزعاته العدائية نحوهم . [٢] » وهذه النزعات العدائية والجنسية التى يفصح عنها الالتجاء إلى السحر ، أو التأثر به ، هى كما لا يخفى من دلائل الهستيريا .

ثانياً : يدخل عامل الإيحاء فى كل من حالات الاعتقاد المفرط فى السحر ، والحالات الهستيرية . « فللأعراض الهستيرية عوامل استعدادية . وأهم هذه العوامل

---

(١) المترددون على الدجال هم بين مريض به مس من الجن ، ومبغى عليه حاقد يريد أن ينقذ نفسه من كيد الآخرين له . بين عانس تريد أن تتزوج ، وعاقر تريد أن تشفى من العقم ، وزوجه هجرها زوجها ، وزوج جافته زوجته . أو زوج (مربوط ؛) . . . وهكذا .

(٢) "... The enmity which the persecuted paranoiac sees in others is the reflection of his own hostile impulses against them." W. McDougall: Ibid. P. 410.

لعله مما يؤيد هذه الحقيقة أن السحرة قلما يمارس الواحد منهم شعوذته للايذاء ، وإنما يلوذ بالجانب الاتساقى الطيب ؛ فهو يفسد وحسب الأعمال التى قام بها الآخرون من السحرة القائم .

قابلية الشخص الكبيرة للايحاء السريع ، سواء كان إيحاء ذاتياً أم إيحاء خارجياً . »[١] وليس من شك فى أن الاعتقاد فى الر يتوقف على القابلية للايحاء . كما أن التأثير النفسانى للطقوس السحرية هو تأثير الإيحاء . « وعامل الشفاء فى معظم الحالات التى كان يعتقد أنها ناشئة من تأثير الجن والشياطين هو بلا شك ما يعرف اليوم بالإيحاء . وكان نجاح العلاج يتوقف غالباً على قابلية المريض للإيحاء . ومما هو جدير بالملاحظة أن كثيراً من حالات الشفاء العجيبة التى يرويها القدامى كانت خاصة بأعراض هستيرية ، ومن المعلوم أن مثل هذه الأعراض لا تصيب إلا الأشخاص الذين يتأثرون بسرعة بكل ما يوحى إليهم ، كما أنهم يتأثرون بكل ما يوحون إلى أنفسهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . فلا عجب أن يزيل الإيحاء ما سبق أن أحدثه إيحاء سابق . . . »[٢]

وحيث أننا وجدنا فى السحر عرضين هستيريين هما : النزعات العدائية والجنسية والإيحاء ، وهما أدلة مباشرة تضاف إلى الأدلة غير المباشرة الواردة فى الرسم التخطيطى سالف الذكر وتضاف كذلك إلى الأدلة الواردة فى صدر هذا المقال عن علاقة السحر بالتطير ، فقد يبرر كل ذلك افتراض وجود ارتباط ما — نتوق إلى معرفة مداه بالطرق الاحصائية — بين الحالات المتطرفة من الاعتقاد فى السحر والهستيريا وبالتالى بالنموذج المنبسط ، وارتباط بين التطير ، والعصاب القهرى (كما أشار إلى ذلك فرويد) والنموذج المنطوى ، ووسيلتنا إلى ذلك هى الاختبار .

علاقة السحر والتطير بالشخصية

على الرغم مما فى السحر والتطير من طرافة ، وعلى الرغم مما فيهما من خرافة ، فما ينبغى أن يباعد ذلك بين دراستهما بطريقة علمية . ويلمس القارىء لهذا المقال وللمقالات السابقة أننا نأخذ بطرائق ومناهج مدارس عديدة ، وأننا لا نتقيد مقدماً بمنهج بعينه ، وإنما نصطنع المنهج الذى تمليه طبيعة المشكلة موضوع البحث . ويتيح لنا ذلك ، من أرحب الآفاق ، المنهج التكاملى الذى يفسح صدره لأحسن ما فى المدارس الأخرى . وإذا كنا نحاول ربط السحر والتطير بنماذج الشخصية ليونج ، وبالعصاب التحولى لفرويد ، فيعتبر ذلك محاولة لرسم حدود الإطار العام

---

(١) « شفاء النفس » للدكتور يوسف مراد — دار المعارف ، اقرأ ص ٦٦

(٢) « شفاء النفس » ص ٩١

لمجال البحث . ونود أن نؤكد أن العلاقات بين العناصر فى داخل هذا الإطار نسبية وأننا نتكلم عن استعدادات عامة ، وعن احتمالات مرجحة ، أو عن معاملات ارتباط محتملة ، نتوق إلى معرفة مداها بالطرق الإحصائية .

والصورة المكملة للنماذج ، هى دراسة سمات الشخصية . ونعتقد أن مما هو جدير بالبحث ، أن نبين العلاقة بين كل من السحر والتطير والصفات المزاجية والخلقية التى تكون الشخصية . يقتضى ذلك أن نبين بالطرق الإحصائية ، وبإيجاد معاملات الارتباط بين نتائج هذا الاختبار ونتائج اختبارات الشخصية ، الأخرى ، مع أى السمات أو الصفات أو النماذج تنزع كل منهما إلى أن ترتبط وأن تتصاحب وسيان أجاءت نتيجة معاملات الارتباط هذه موجبة أو سالبة ، ضعيفة أو قوية ، فهى تستحق البحث فى كل حال . وعلى ذلك ينبغى أن يجتاز هذا البحث حدود التأملات النظرية إلى القيمة العملية التطبيقية وأن ينتقل من التجريد إلى التجريب ، وسبيلنا إلى ذلك هو الاختبار .

وكما سبق لنا أن وضعنا « مستوى تقدير » للتفاؤل والتشاؤم فى مقال « اختبار للتطير » ، فكذلك قد يكون من الممكن وضع الاعتقاد فى السحر ، والتطير (أى التشاؤم من التابو) على طرفى « مستوى تقدير » بمعنى أن هنالك تواصل بينهما ، وأن الاختلاف بينهما كمى ونسبى فى اتجاهين متقابلين ، والناس بين هذين الطرفين فى مراتب ودرجات . فحالات الاعتقاد فى السحر من ناحية ، وحالات التطير من التابو من ناحية أخرى عبارة عن متغيرات وتختلف فى الدرجات والحالات المتطرفة من كل منهما قليلة ، وتقع على طرفى نقيض فى مستوى التقدير ، وغالبية الناس فى الوسط . وشأن السحر والتطير فى ذلك شأن سمتى التفاؤل والتشاؤم وشأن سمتى الانبساط والانطواء . وشأن كل السمات فى مستويات ، وتختلف فى الدرجات اختلافاً كمياً ، والغالبية العظمى فى الوسط . ويقل التوزيع كلما اتجهنا صوب الطرفين .

وما دمنا نتكلم عن متغيرات Variables أو عن مستويات ، فيعنينا أن نبين الارتباط الوظيفى بين هذه المتغيرات ، وإلى أى حد تتمشى هاتين الظاهرتين ، مع متغيرات أخرى كالسمات المزاجية والخلقية . ويتضح مما سبق أننا لسنا بصدد ظاهرتين منعزلتين هما السحر والتطير ، وإنما نحن بصدد شبكة من العلاقات والارتباطات الوظيفية بسمات أخرى ، متغيرة كذلك . وقد رأينا أن الاحتمال كبير

فى أن يكون الارتباط الوظيفى الذى افترناه صحيح . ونعنى به : الارتباط بين السحر ، والهستيريا ، والانبساط من ناحية ، وبين التطير ، والعصاب القهرى ، والانطواء من ناحية أخرى . ومعنى الارتباط الوظيفى أنه إذا حدث تغيير فى قيمة أحد المتغيرات ، صحبه تغيير آخر مرتبط به ومتمشى معه فى متغير آخر (١). وهدف الطريقة العلمية الإحصائية هو اكتشاف طبيعة هذه الارتباطات الوظيفية ، والتعبير عنها تعبيراً كمياً رياضياً . أى إيجاد معاملات الارتباط بين الظاهرات المختلفة . ومعنى ذلك أنه إذا تأيد بالاختبار صحة الارتباط الوظيفى الذى افترضناه بين السحر ، والهستيريا ، والانبساط من ناحية وبين التطير ، والعصاب القهرى والانطواء من ناحية أخرى ، يكون — مثل هذا الاختبار — بعد تقنينه — كمثل الترمومتر ؛ . . . فهل يكون من سبق القول عندئذ أن لمثل هذ الاختبار قيمة تشخيصية ؟

وهذا طبعاً مجرد احتمال . ولا نريد أن نقفز إلى نتائج . ولن نطلق تعميمات سابقة للأوان . وإنما العبرة فى تحقيق هذا الاحتمال بالاختبار وبالاختبار بعد تقنينه وضبطه .

وفى العلم فصل وربط ، تحليل وتركيب ، عزل عناصر وتتبع علاقات ، فصل عوامل وإيجاد ارتباطات . وقد رأينا أن ظاهرتى السحر والتطير وحدتان محددتان ، يمكن التعرف عليهما والتثبت من ذاتيتهما ، ويحق لنا فصلهما . وهذا الفصل اعتبارى غير كامل ، تستلزمه سهولة الدراسة . ولا نفصل هاتين الظاهرتين إلا ريثما نضع الأمثلة والأسئلة التى تنصب على أعراضهما . وعلى الرغم من هذا الفصل ، فان بينهما علاقة . ومن المرجح كذلك أن بين كل منهما والنماذج والسمات علاقات أخرى . أو بقول آخر لا نفصل هاتين الظاهرتين إلا لكى نعيد ربطهما ببقية مقومات الشخصية وسماتها وذلك لأنه ، على حد قول إيرل فى مقال له فى « بعض طرق تقدير المزاج والشخصية » (٢) (مهما تكن تسمية المقياس أو

---

(١) مثال ذلك الترمومتر : درجة الحرارة متغير ، وحجم الزئبق متغير آخر . وكلما ارتفعت درجة الحرارة تمدد الزئبق أى « ارتفع (وكلما قلت درجة الحرارة انكمش الزئبق أى « انخفض » . فاذا تغيرت القيمة فى أحد المتغيرات كالحرارة ، صحبها تغير آخر مرتبطاً بها ومتمشياً معها فى متغير آخر هو حجم الزئبق .

(٢) C.J.C. Earl: "Some Methods of Assessing Temperament and Personality"; in the Study of Society, edited by Bartlett and others, Kegan Paul, 1939. Ch. X P. 231.

الاختبار ؛ فما يقاس أو يختبر ليس فى الواقع « الذكاء » « الصفات المزاجية » « الصفات الخلقية » « الانفعالية » أو أى تجريد مشابه . وإنما الذى يقاس هو السلوك ، والسلوك من وظائف الشخصية ككل . فكأن جميع الاختبارت هى فى آخر الأمر اختبارات للشخصية مع احتمال تأكيد واحد أو آخر من خصائصها)

وفى العلوم النفسية والاجتماعية لم يصل القياس إلى مثل الدقة التى وصل اليها فى العلوم الطبيعية وذلك لتعدد العوامل وتداخلها وترابطها ، الأمر الذى يتعذر معه فصل عامل وحده وضبط العوامل الأخرى أى تثبيتها ، حتى يسهل إرجاع نتيجة ما إلى سبب بعينه دون غيره ، أو بيان إلى أى حد يدخل عامل مشترك بأقدار متفاوتة بين الظاهرات المختلفة ، مثل هذا التداخل بين العوامل ، وصعوبة فصلها هو الذى يحتم استخدام الطرق الإحصائية . فليست الاختبارات السيكولوجية ، حينئذ « بتضخم مرضى فى نمو علم النفس الحديث » كما قيل . وإنما هى — إذا استوفت شروطها — الطريقة العلمية المثلى التى تكفل لعلم النفس أن يتحول عن ذاتية الاستبطان والحدس والتخمين ، إلى موضوعية التقدير والضبط والتقنين .

ويشترك فى كل اختبار سيكولوجى شروط معينة ينبغى توافرها ، كما أنه يمر على مراحل عديدة لازمة لتقنينه . وأفضل الاختبارات هى الاختبارات الموضوعية التى تتناول الظاهرات التى عرفنا دوافعها . وفى ذلك يذكر إيرل فى خاتمة مقاله [1] سالف الذكر « إن أفضل الاختبارات السيكولوجية هى الاختبارات الموضوعية التى تقيس ردود أفعال معينة فى مواقف مقننة . على أن مثل هذا التخصص يحد من قيمة الاختبار فى تقدير الشخصية ككل ، لمثل هذه الاختبارات قيمتها إذا ما طبقت على مشاكل معينة ، بشرط أن تكون ردود الأفعال الخاصة التى تقاس معروفة دوافعها . »

وقد عرفنا دوافع السحر والتطير من مساهمة فرويد . وعرفنا ميكانيزم اكتسابهما فى ضوء الشرطية وتجارب بافلوف . فالميزة الهامة فى اختبار السحر والعرافة والتطير هى أن الأعراض التى نحاول تقديرها قد عرفنا دوافعها وبقى أن نخضع هذه الظاهرات للقياس ، وأن نترجمها إلى لغة علم النفس العام ، وذلك بأن نحدد علاقتها بالشخصية .

---

(١) C. Earl: Ibid. P. 254.

بقيت كلمة عن مكانة العرافة أو استطلاع الغيب من هذا الإطار العام . والالتجاء إلى العرّاف أو إلى العرافة لا يقل ذيوعاً وانتشاراً بين الناس عن الالتجاء إلى السحر أو التطير . ويختلف حظ الناس فى قبول طرق العرافة المختلفة : فيأخذ بعض الناس قول العرّاف مأخذ الجد ، ويستخف بعضهم الآخر بتنبؤآته . قد يصدقون بعض الطرق ، وينكرون بعضها الآخر . يثقون فى نبوءآت قارىء كف أو فلكى مثلا . ويتشككون فى طريقة الضارب للرمل والهامس فى الودع . . . وهكذا . وما دمنا بصدد اختبار ، فالذى يعنينا بصفة خاصة هو هذا التباين ، وذلك الاختلاف . واختلاف حظ الناس فى الالتجاء إلى طرق العرافة ، يدعونا إلى القول بأنه ينم عن رغبة متأصلة فى النفوس لكشف حجب الغيب . فهو إفصاح عن غريزة حب الاستطلاع . وإذا ما حاولنا إرجاع هذه الظاهرات الثلاث : السحر والتطير والعرافة إلى الغرائز ، وأخذنا بتقسيم مكدوجل للغرائز وجدنا غريزة السيطرة أقرب الغرائز إلى السحر ، وغريزة الخضوع أقربها من التطير . أما الالتجاء إلى العرافة فهو إفصاح عن غريزة حب الاستطلاع . على أن هذه الغرائز التى تفصح عن نفسها فى هذه الظاهرات ، لم تنظم فى عواطف ، ولم تسلك الطريق المعلى ، وإنما يلوح أنها سلكت طريقاً سفلياً هو طريق القلب . وقد تكون هذه الظاهرات أقرب إلى العقد منها إلى العواطف . فهى جميعها استجابات للرموز بدلالة تنبؤ ، يكتنفها التوقع والترقب لما يأتى به الغيب . فهى ليست استجابات سوية للحقائق ، وإنما هى استجابات شاذة للرموز . ويلوح أن ما فى هذه الظاهرات الثلاث من قوى غيبية ، لم يهبط على النفس من الخارج ، بقدر ما نبع من الداخل . ومن ثم تنتمى هذه الظاهرات إلى سيكولوجيا الأعماق . يتضح من ذلك أنه إذا أردنا أن نربط هذه الظاهرات الثلاث بالغرائز فينبغى أن ندرك أن هذه الغرائز لم تسلك فى سبيل الإفصاح عن نفسها طريقاً سوياً ، وإنما سلكت طريقاً سفلياً هو طريق القلب : فالسيطرة بالعلم على قوى الطبيعة مثلا إفصاح عن غريزة السيطرة بطريقة سوية . على حين أن السيطرة بالسحر على قوى غيبية ، والزعم بتسخيرها فى تحقيق الأغراض ، هو قلب لهذه الغريزة ، وكذلك يبدو الافصاح السوى عن غريزة الخضوع ، فى الخضوع للحقائق أو للأمر الواقع . أما التطير فهو قلب لغريزة الخضوع لأنه خضوع قهرى للأوهام والأباطيل ، ولا يقوم على أى أساس من التفكير المنطق . ومثل ذلك يقال عن الالتجاء إلى طرق العرافة ، فهو إفصاح شاذ عن غريزة حب

الاستطلاع . وعلى ذلك ليس يكنى أن نرجع هذه الظاهرات إلى أصولها فى الغرائز ، لأن هذا الربط — على ما فيه من سهولة ويسر — لا يعطينا سوى صورة ناقصة . وحيث أننا قد أثبتنا فيما سبق أن هذه الظاهرات الثلاث ، ظاهرات باثولوجية أى مرضية ، فلذلك يجدر بنا ربطها بالاستجابات الشاذة .

وإذا نحن أخذنا بتصنيف الأستاذ الدكتور يوسف مراد للاستجابات الشاذة على أساس الاستجابة التوافقية . . . كما جاء فى كتابه « شفاء النفس » لبدا وكأنما الالتجاء إلى العرافة ، وما يكتنفه من توقع وترقب هو ضرب من الانتظار الشاذ الذى لا هو إقدام شاذ كما فى السحر ، ولا هو إحجام شاذ كما فى التطير . وبذلك يلوح وكأنما تبدو أساليب الاستجابات الشاذة الثلاثة ، التى أظهرنا عليها الأستاذ الدكتور يوسف مراد وهى : الإقدام الشاذ ، والإحجام الشاذ ، والانتظار الشاذ ، بصورة مصغرة فى : السحر ، والتطير ، والعرافة على الترتيب . أى أنها تبدو بدرجة أقل لدى الأشخاص العاديين الذين نصادفهم فى الحياة اليومية » .

ويوضح الشكل الآتى هذه العلاقة ، التى اتخذناها أساساً لتصنيف أسئلة الاختبار :

وبنفس الطريقة التى اتبعناها فى تصنيف أمثلة التطير وحدها فى مقال (« اختبار التطير » إلى حالات خفيفة وإلى حالات متوسطة (أى مشروطة) ، عملنا على تصنيف أمثلة العرافة وأمثلة السحر كذلك . وبذلك جعلنا الاختبار فى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : فى العرافة واستطلاع الغيب .

القسم الثانى : فى السحر .

القسم الثالث : فى التطير (أى التشاؤم) والتفاؤل .

وقسمنا كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة إلى قسمين :

(ا) حالات خفيفة ــ عامة ــ من التقاليد والعرف .

(ب) حالات متوسطة ــ خاصة أو مشروطة .

وفى القسم الثالث الخاص بالتطير اتخذنا ، بالإضافة إلى التقسيم السابق ، الأسس التالية للتصنيف :

١ ــ التمييز بين البشائر التى تدعو إلى التفاؤل ، والنذر التى تدعو إلى التشاؤم .

٢ ــ التمييز بين التطير من الرموز ، والتطير من الأعمال (أى التشاؤم من التابو الذى اعتبره فريزر ناحية سلبية للسحر)

٣ ــ التمييز بين الرموز والمنبهات الخارجية ، والرموز والمنبهات الداخلية . ومن أمثلة الرموز والمنبهات الخارجية : حدوة الفرس ، البومة ، القطة السوداء ، السلحفاة الغراب ، خمسة وخميسة ، القلة المكسورة . . . وقد وضعنا لها فى الاختبار صوراً بدلا من الاسئلة العادية .

ومن أمثلة الرموز والمنبهات الداخلية : (رف) العين ، الأكال فى راحة اليد أو فى بطن القدم ، طنين الأذن . . . والليمنى من كل منها لدى المتطيرين توقعات والليسرى توقعات أخرى ، وقد لوحظ أن التطير من هذه الرموز والمنبهات الداخلية يدخل فى عداد الحالات المشروطة .

وقد يبدو لنا أن نتساءل ما السبب فى حدوث هذه المنبهات الداخلية ؟ قد يكون رف العين ، والأكال فى راحة اليد . . . من قبيل الأفعال المنعكسة غير الخاضعة للإرادة . وإذا اعتبرناها أعراض symptom ، فقد يكون لها دوافع لاشعورية نتيجة لمواقف الترقب والتوقع وما قد يصاحبها من قلق وتوتر . وبذلك يلوح وكأنما لايصادف المتطير حوادث النحس كنتيجة لأن نذير السوء وهى عينه الشمال

مثلا (رفت) وإنما (رفت) عينه الشمال لأنه توجس الشر من قبل ؛ وتوجس الشر هذا يكون غير مشعور به . أو قد تكون هذه المنبهات نتيجة للرغبات : وبذلك لا تأتى النقود لأن المتطير شعر بأكال فى راحة يده اليمنى ، وإنما شعر بهذا الأكال لأنه استشعر الحاجة الملحة إلى نقود ! وكلما تصادف ورود النقود بعد ذلك وتكرر اتفاق المصادفة ، أضيفت توكيدات جديدة للارتباط الشرطى تزيده تثبيتاً (١) . وهكذا بما يشبه الحلقة المفرغة . وإذا كان لهذه الرموز والمنبهات الداخلية دوافع لاشعورية فهى حينئذ كالأحلام ظاهرات باثولوجية . وقد يكون مثلها كمثل ذلك الحلم النموذجى : وهو الحلم (بالحرامى) الذى يعتبره العامة نذيراً بحضور ضيف . وقد فسراه(٢) على أساس أن دوافعه فى الماضى : لا يحضر الضيف لأن المتطير حلم (بالحرامى) وإنما حلم المتطير (بالحرامى)نتيجة لأنه حضر له ضيف من قبل !

وقد يبدو لأول وهلة أن مثل هذا التفسير بحتمية الدوافع اللاشعورية لا ينطبق إلا على النزعات التى تكبت فى اللاشعور وهى نزعات العداء والكراهية . وأنه لا ينطبق على « بشره الخير » مثلا سواء أكانت حلماً نستبشر به ، أو من الرموز والمنبهات الداخلية التى نعتبرها فألا حسناً . وذلك على أعتبار أن الخير لا يكبت وأن مقامه فى اللاشعور . الواقع أن هذا التفسير بالدوافع اللاشعورية للمنبهات الداخلية ينطبق على كل من النذر والبشائر على حد سواء . وذلك لأن اللاشعور لا يعرف معايير الخلق . ولا نحكم على هذه الرموز والأعراض بالخير أو بالشر أى بأنها بشائر أو نذر إلا بعد ارتباطها ارتباطاً شرطياً بحوادث المصادفة الخارجية التى قد تكون حوادث سعد أو حوادث شؤم . . . يؤيد ذلك اختلاف المتطيرين بشأن المنبه أو الرمز الواحد : فالبعض منهم يتخذ (رف) العين اليمنى مثلا بشير خير ويتفاءل له ، والبعض الآخر يتخذ نفس هذا الرمز أى (رف) العين اليمنى نذير سوء ويتشاءم منه ، كما أن بعض الرموز والعلامات تكتسب مغزى خاصاً عند بعض المتطيرين ، على حين أن رموزاً وعلامات أخرى لا يلتفتون إليها وليس لها عندهم أى مغزى .

إذا صح مثل هذا التفسير بالدوافع اللاشعورية ، فإنه كفيل بأن يجلو لنا ناحية كادت أن تقوض ركناً من أركان التصنيف السابق . فإذا أعدت النظر فى

---

(١) راجع تفسيرنا للتطير على أساس الفعل المنعكس الشرطى فى مقال : « اختبار للتطير » فى مجلة علم النفس عدد أكتوبر سنة ١٩٤٩ مجلد ٥ .

(٢) « تأويل شعبى لحلم نبوى » فى مجلة علم النفس عدد اكتوبر سنة ١٩٥٠ مجلد ٦ .

الشكل البيانى السابق الذى يوضح العلاقة النسبية بين السحر والعرافة والتطير وتصنيف الاستجابات الشاذة وجدت صعوبة فى قبول إدخال التفاؤل تحت الإحجام الشاذ ! حقيقة أن التشاؤم – ولا سيما من أعمال – هو فى صميمه إحجام . أما التفاؤل فيبدو لأول وهلة تعذر وضعه تحت الإحجام الشاذ ، الواقع أن هذا التناقض ظاهرى وليس حقيقى . ويسهل إدراك ذلك إذا تذكرنا أننا نتناول رموزاً ، وأن تكرار ارتباط هذه الرموز بحوادث سعد أو بحوادث شؤم فى الخارج هو الذى يضفى عليها مغزى ومعنى : فالبشائر التى تدعو إلى التفاؤل ، والنذر التى تبعث على التشاؤم اكتسبت معناها ودلالتها لدى المتطير من الخارج بعد أن ارتبطت ارتباطاً شرطياً بحوادث المصادفة الخارجية . أما دوافعها الحقيقية فواحدة . هى الدوافع اللاشعورية . وهذه الدوافع اللاشعورية لا نحكم عليها بالخير أو بالشر فلا يعرف اللاشعور معايير الخلق . ومن ثم فلا عجب أن نرى الآية الكريمة من التوراة ، الواردة فى صدر هذا المقال ، تنهى حتى عن التفاؤل .

وإذا أخذنا فى الاعتبار أن الفرق بين العصابى والسليم هو فرق فى الدرجة أمكن أن نعتبر الحالات المشروطة للتطير من الرموز والمنبهات الداخلية حالات خاصة أو حالات متوسطة ، هى من ناحية أشد فى الدرجات من الحالات الخفيفة التى تكتسب بالإيحاء من البيئة المنزلية ومن التقاليد ، وأكثرها من الرموز الخارجية ، وهى من ناحية أخرى أخف فى الدرجات من الحالات العصابية التى أظهرنا عليها فرويد ، وهى حالات « العصاب القهرى » . وبذلك تمثل الحالات المتوسطة أو المشروطة مرحلة انتقال بين الحالات الخفيفة من ناحية ، والحالات العصابية من ناحية أخرى .

وقد رأينا أن فرويد يسمى « العصاب القهرى » ، « مرض التابو » لما بينهما من وجوه شبه كثيرة . والعرض الشاذ البارز فى كلا الحالين هو التشاؤم . غير أننا نجد فى الأمثلة التى أوردها فرويد للعصاب القهرى أننا بإزاء تطيرات ومحظورات يضعها العصابى بنفسه لنفسه ، مستقلة عن التطيرات التى تواضع عليها المجتمع . فالعصابى يفرض على نفسه محظورات أو تابوات Taboos يلتزمها : فمن أشياء يحظرها على نفسه ، إلى أعمال يعافها ويتهيبها ، إلى أفكار قهرية متسلطة أو أعمال يرى نفسه مجبراً على القيام بها بدون دافع شعورى ، والتطير – ولا سيما التشاؤم من بعض أشياء أو أعمال – من قبيل هذه المحظورات أو التابوات ، غير أنه أخف

منها فى الدرجات . والبعض منها تواضع عليها المجتمع وأصبحت تستند إلى العرف والتقاليد .

ولما كانت التطيرات والتابوات التى يضعها العصابى بنفسه لنفسه تطيرات خاصة مستقلة عن التابوات التى تعارف عليها المجتمع ، فستختلف من فرد إلى فرد ومن حالة إلى أخرى ومن ثم يتعذر تضمينها أمثلة الاختبار . لهذا السبب ، وللأسباب الأخرى الواردة فى مقال « اختبار للتطير » استبعدنا الحالات العصابية ، واقتصرنا على الحالات المتوسطة والحالات الخفيفة من التطير فى الاختبار .

وعلى الرغم من أن للحالات الخفيفة من التطير سنداً من العرف والتقاليد ، فلا ينفى عنها ذلك صفة الانحراف أو الشذوذ ولا يتأتى ذلك إلا إذا اعتبرنا أن الأعراض الشاذة التى تصيب شخصية الأفراد بالأغلال والتفكك ، قد تصيب كذلك المجتمع الذى يتكون من مجموع الأفراد . وهذا — إلى حد كبير — صحيح . « فللمجتمعات خصائص الترابط والتكامل بما يشبه تكامل الشخصية فى الأفراد . وهذه الشخصية التى للمجتمع قد تصاب كذلك بالأعراض التى تصيب الأفراد » ومن ثم فلا عجب ألا يجد كربير (٢) Kroeber وهو بسبيل البحث عن مقياس موضوعى ليقاس به « التقدم » سوى مدى انتشار الخرافات والسحر والتطيرات فى أى مجتمع ، ليتخذه معياراً لتأخره !

وكما أن كربير يعتبر انتشار الخرافات والسحر والتطيرات فى مجتمع دليلا على تأخره ، ويتخذ منها مقياساً لمدى تأخر الجماعات . فكذلك نحاول نحن أن نتخذ من هذا الاختبار الذى يتضمن أمثلة للاعتقاد فى السحر والعرافة والتطير مقياساً لدرجة (تأخر) الأفراد ! وقد سبق لنا أن أشرنا — بمنتهى الحرص — إلى احتمال أن يكون لهذا الاختبار قيمة تشخيصية . ولا يمكن القول بذلك ما لم يجتاز الاختبار الخطوات العديدة اللازمة لتقنينه . وما لم يتضح بالطرق الإحصائية صدق الارتباط الوظيفى الذى افترضناه بين : التطير ، والعصاب القهرى ، والانطواء من ناحية ، وبين الاعتقاد المفرط فى السحر ، الهستيريا والانبساط من ناحية أخرى . وعلى الرغم من أننا استبعدنا الحالات العصابية من الاختبار ، فلا يخفى أن العصاب يقع فى نهاية الدرجات التى تعتبر بدايتها حالات خفيفة ، فعلى الرغم من أننا اقتصرنا فى

(١) J.T. MacCurdy: "Psychopathology and Social Psychology", in The Study of Society, Ch. III., edited by Bartlett nd others. P. 47.

(٢) A.L. Kroeber: Anthropology. Harrap: P. 298.

أمثلة الاختبار على الحالات الخفيفة . والحالات المتوسطة لكل من الاعتقاد فى السحر والعرافة والتطير فقد يساعدنا الاختبار على بيان الاتجاه أو الاستعداد العام : فليس من شك فى أن درجة عالية من الميل إلى التشاؤم ، أو درجة عالية من الاعتقاد فى السحر لا بد أن تكون ذات مغزى . أما ماهية ذلك المغزى على وجه التحديد ، فهذا هو ما يُرجى من الاختبار أن يبينه .

وما ينبغى أن نستخف بهذه الأمثلة التى تتضمنها أسئلة الاختبار ، لمجرد كونها تتناول خرافات . بعد أن أظهرنا البحث العلمى على دوافعها اللاشعورية ، وعلى أنها ظاهرات باثولوجية لا تخلو من دلالة . وإذا كان التحليل النفسى يلجأ إلى طرق غير مباشرة للولوج إلى اللاشعور ، هى طرق التداعى الحر وتفسير الأحلام ، فها هى ذى الأعراض الشاذة ماثلة بين ظهرانينا فى الاعتقاد فى السحر وفى التطير . وقد عرفنا دوافعها اللاشعورية كما عرفنا من قبل الدوافع اللاشعورية للأحلام . وقبل أن يدرس فرويد الأحلام ، كان الاعتقاد السائد أن لها قيمة تنبؤية (١) . وكذلك يكتنف السحر والتطير والعرافة والتوقع والترقب لما يأتى به الغيب . ولا يعنينا من أمر هذه الظاهرات الثلاث ، الارتباطات الشرطية بين رموزها وحوادث المصادفة الخارجية ، وإنما الذى يعنينا هو دوافعها اللاشعورية الداخلية . وإذا كانت الأحلام ظاهرات باثولوجية ، فكذلك السحر والتطير هى الأخرى ظاهرات باثولوجية وإذا كان فرويد قد أظهرنا على الدوافع اللاشعورية للأحلام ، فقد أظهرنا كذلك على الدوافع اللاشعورية للسحر وللتطير . وإذا كان التحليل النفسى قد أفاد من الأحلام ، فكذلك نحاول نحن الإفادة من هذه التطيرات والخرافات فائدة عملية فى الاختبار . فإذا كانت الأحلام هى الطريق السلطانى إلى اللاشعور — كما يقال — فكذلك الاعتقاد فى السحر والالتجاء إلى العرافة والتطير هى الأخرى ظاهرات باثولوجية . وأمثلة حية نصادفها فى الحياة اليومية ، وعرفنا دوافعها اللاشعورية . فأسئلة الاختبار بمثابة منبهات . والإجابة ردود أفعال معينة فى مواقف مقننة ، هى بمثابة أنواع معينة من السلوك . وهى وإن كانت أعراض خارجية إلا أن

(١) لا يزال فى الميثولوجيا المصرية أحلام نموذجية ، تبدو فيها الرمزية واضحة ويظن العامة أن لها قيمة تنبؤية . ومن أمثلة هذه الأحلام : الحلم بالسمك الحى . . . كله رزق . الحلم بالكمك . . . ضيقة . البكاء فى الحلم . . . فرج . الحلم بالفطير . . . نكد وخصام . والحلم بالذهب . . . فأل ردىء . والحلم بالفضة . . . فأل حسن . والحلم بالحرامى . . . ينذر بحضور ضيف . وغيرها كثير .

لها أكبر الدلالة على الدوافع الداخلية وعلى حقيقة ما فى اللاشعور . سواء أكان هذا اللاشعور كما يصوره فرويد أو كما يتصوره يونج .

والاختبار فى صورته الراهنة ، هو محاولة مبدئية صرفة : عبارة عن تجميع لأمثلة وتصنيف لها . وهذه الأمثلة أو الأسئلة قابلة للمراجعة والتعديل بحسب ما يظهر عند التجربة .

والمتصفح لأسئلة الاختبار وهى بحالتها الراهنة ، سيدرك لأول وهلة أن ما يجمع بين هذه الأمثلة التى يتضمنها الاختبار هو الرمز . فهو العامل المشترك بين السحر والعرافة والتطير . . . وذلك مما يدعونا إلى القول باحتمال أن يكون هذا الاختبار ، بما يشتمل عليه من رموز ، مساهمة إيجابية تجريبية فى الكشف عن (عامل طائفى) خاص بالاستجابة للرمز ، ونشير إلى هذا الاحتمال كذلك بمنتهى الحرص حيث أن الاختبار ما يزال فى مرحلة أولى من التطبيق التجريبى ، كما أننا لم نستطع ، بوسائلنا المحدودة ، أن نتوفر بعد على بحث هذا الجانب من الموضوع . ونأمل أن يتاح لنا ذلك ! أو أن يتيح لنا أولى الأمر ذلك ! ؟ .

والقول باحتمال الكشف عن (عامل طائفى) هو العامل الرمزى يستند إلى دعامتين : أولاهما ما أشار إليه الأستاذ (جورج ديما) من وجود (ملكة للرمز)هى من الملكات العامة المنظمة للحياة النفسية [١] .وهل إذا كان الأستاذ (جورج ديما) بصدد بحث تجريبى ، أفلم يكن يفضل القول بوجود عامل طائفى للرمز بدلا من ملكه للرمز ؟ . والدعامة الثانية التى تبرر قولنا بهذا الاحتمال نجدها فى كتابات يونج . ورغبة منا فى توخى الإيجاز ، نقتبس بعض فقرات مختارة عن يونج . وهذه الفقرات هى خلاصة أو نتيجة لمناقشة طويلة فى الرمزية الصوفية المسيحية ، كما تبدو فى أحد الكتب الدينية وهو كتاب : « نشيد الأنشاد » . وفى خاتمة هذه المناقشة الطويلة ، يوضح لنا — فى الفقرات المقتبسة التالية : طريقة تكوين الرمز ، والوظيفة التى يحققها ، ومصدره .

« . . . عند إبدال (أو انحسار)طاقة الليبيدو من الموضوع الخارجى إلى الذات تنشط الصور اللاشعورية . وهذه الصور هى أشكال قديمة للتعبير ، تصبح رموزا ، وتبدو بدورها مساوية للموضوعات الخارجية التى أنقص من قيمتها نسبيا . »[٢]

---

(١) نقلا عن مقال الأستاذ عدنان الذهبى : « فى سيكولوجية الرمزية » مجلة « عدد أكتوبر سنة ١٩٤٩ ص ٢٦٩

C.G. Jung: "Psychological Types"; P. 293.

« وهذه العملية على أية حال قديمة قدم الإنسان نفسه ؛ وتظهر الرموز فى آثار الإنسان التى ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ ، بنفس درجة ظهورها بين الطبقات والجماعات البدائية المعاصرة ، ويتضح حينئذ بجلاء أن لعملية تكوين الرمز وظيفة بيولوجية على جانب كبير من الأهمية . وحيث أن الرمز لا ينشأ أصلا إلا على حساب الإنقاص نسبياً من قيمة الموضوع الخارجى ، فإنه يترتب على ذلك أن تختص غاية الرمز بالإنقاص من قيمة الموضوع . (١) »

« . . . والوظيفة التى يحققها الرمز ، والغاية التى وجد من أجلها ، هى أن يسحب جزء من الطاقة النفسية (الليبيدو) من الموضوع ، مما يترتب عليه أن ينقص من قيمته نسبيا ، فتنحسر هذه الطاقة الزائدة إلى الذات ، وتبقى حية نشطة فى لاشعور الشخص ، الذى يجد نفسه بين حتم داخلى ، وحتم خارجى ، ومن ثم تظهر أمامه فرصة للاختيار ، ويجد حرية نسبية ذاتية . »(٢) « ويشتق الرمز دائماً من مكنونات أزلية قديمة مطبوعة فى أصل غرس الجنس . أما عن مصدره وتاريخه فللمرء أن يحدس كيفما شاء ولكنه لن يصل بشأنه إلى شىء محدد . وليس من شك فى أنه يكون من الخطأ أن نبحث عن أصل الرمز فى المنابع الشخصية ، كالجنسية المكبوتة مثلا . إن غاية ما يفعله هذا الكبت هو أن يزود طاقة الليبيدو بما ينشط الصور البدائية أو الانطباع القديم . . . » (٣)

ومجمل القول ، يُرجع يونج الرموز إلى الصور الأولية البدائية التى يحتويها اللاشعور الجمعى ، وكما أن الرمز يبدو فى الحالات السوية فى الرمزية الدينية ، والرمزية الفنية ، والرمزية الصوفية . . . فكذلك يبدو فى الظاهرات الباثولوجية : كالأحلام ، والأساطير ، والسحر ، والتطير كما يبدو فى الخرافات الشائعة التى يمكن إدخالها فى عداد (البقايا survivals)

وفى نفس الوقت الذى كنا نتناول فيه الرمزية فى الظاهرات الباثولوجية كالسحر والتطير ، كان زميلنا الأستاذ عدنان الذهبى يتناول ظاهرة الرمز فى الحالات السوية(٤)

---

(١) Ibid. P. 294.

(٢) Ibid. P. 295.

(٣) Ibid. P. 296.

(٤) فى مقالات ثلاث بعنوان : « سيكولوجية الرمزية » فى مجلة علم النفس أعداد : فبراير ، وأكتوبر سنة ١٩٤٩ ، وفبراير سنة ١٩٥٠

وإلى جانب مساهمة يونج ، سالفة الذكر ، نضع تلك النتيجة الهامة التى انتهى إليها الزميل الفاضل وهى نفس النتيجة التى وصل إليها الأستاذ (جورج ديما) من قبل وهى : « ظاهرة الرمز ليست مقتصرة على (المجال الحسى) ، بل أنها أكثر عمومية ، تشمل المجالات النفسية كلها من حسية ، ووجدانية ، وانفعالية ، وفكرية ، وهكذا مما يدعونا إلى القول — فى إطار علم النفس العام — بوجود ملكة عامة للرمز منظمة للحياة النفسية ، فى محاولاتها المعرفة ، أو التعبير . . . »[1]

أخيراً حيث أننا قد ضمنا الاختبار المقترح : (١) أمثلة للعرافة واستطلاع الغيب (٢) وأمثلة للاعتقاد فى السحر (٣) وأمثلة للبشائر التى تدعو إلى التفاؤل (٤) وأمثلة للنذر التى تدعو إلى التشاؤم (٥) وأمثلة للتطير من التابو (أى الامتناع عن إتيان أعمال معينة — وهو الناحية السلبية للسحر (٦) وأمثلة لبعض الأحلام التنبؤية . . . وحيث أن العامل المشترك بين هذه الأمثلة جميعها هو الرمز ، فهى جميعها استجابات للرموز بدلالة تنبؤ ، ويكتنفها التوقع لما يأتى به الغيب . لذلك فإننا نرمى من وراء هذا الاختبار إلى غرضين أساسيين هما :

أولا : بيان علاقة السحر والعرافة والتطير والتفاؤل بالشخصية . وبصفة خاصة مدى صحة الارتباط الوظيفى الذى افترضناه بين السحر ، والهستيريا ، والانبساط من ناحية ، والارتباط بين التطير ، والعصاب القهرى ، والانطواء من ناحية أخرى. إذ لو تأيد هذا الارتباط بالطرق الإحصائية ، لجاز أن يكون لمثل هذا الاختبار قيمة تشخيصية . !

ثانياً : قد يكون هذا الاختبار ، بما يحتوى عليه من رموز ، مساهمة إيجابية تجريبية للكشف عن (عامل طائى (هو) العامل الرمزى

وليس من شك فى أنه ستظهر صعوبات واعتراضات ، وربما تظهر أخطاء كذلك ، يعنينا أن نعلم هل هذه النقائص ناتجة من الاستدلال المنطق فى هذا الأساس النظرى للاختبار ؟ أو أنها ناشئة عن نقص فى الاختبار ذاته . حسبنا أن نضع الاختبار ، وما يثيره من احتمالات بين أيدى المختصين ، وأن نتقبل منهم النقد والتوجيه شاكرين .

نجيب يوسف بدوى

---

(١) « فى سيكولوجية الرمزية » (٢) مجلة ٥ عدد اكتوبر سنة ١٩٤٩ ص ٢٧١ .

مجلة علم النفس – يوليو ١٩٥١

أثر اللاشعور فى علاقة الآباء بالأبناء

بقلم
فائزة على كامل

تتكون الأسرة بمجرد زواج شخصين ، وهذا الموقف الجديد يثير حالات سيكولوجية لدى كل من الزوجين قد تكون بسيطة فيمكن التغلب عليها وقد تكون شديدة بحيث تؤدى إلى استحالة التوافق وبالتالى تحتم الفراق بينهما . ولن نعرض لتأثير اللاشعور على العلاقة الزوجية وإنما نود أن نشير إلى أن القوى اللاشعورية تظهر منذ إتمام الزواج وليس فقط بعد ولادة أول طفل . فإذا كانت الزوجة مثلا من النوع الذى اعتمد اعتماداً شديداً على الوالدين فى مرحلة الطفولة فإنها بعد زواجها لن تستطيع أن تعيش عيشاً مستقلا ، ومن ثم تذهب من حين لآخر لتأخذ برأى والديها فى كل كبيرة وصغيرة . وقد يسبب ذلك للزوج ضيقاً يجعله يثور من أجل سلطته التى حطت من قدرها زوجته . كذلك إذا كان الزوج قد دلل فى صغره ، فكانت أمه عبدة له ، تنظر إليه على أنه كل شىء ومن أجله يجب أن تضحى بكل شىء فإنه لن يقبل من زوجته إلا أن تعامله المعاملة نفسها . فإذا كانت الزوجة حكيمة استطاعت أن تجعله يدرك أنها ليست أمه ، وأنها لا ترضى أن يظل طفلا بل تريد منه أن يكون زوجاً يتعاون معها فى الحياة . قد يكلل مثل هذا السعى بالنجاح ويسود الوئام وقد تكون المشكلة أعمق من ذلك فيؤدى موقف الزوجة إلى إثارة سلوكه الطفلى الذى كان يسلكه إزاء أمه فيهدد ويتوعد ويتولد الخلاف والشقاق .

وتزداد المشكلة تعقيداً ويصبح الأمر أكثر حرجاً عند ما يحل الضيف الجديد ألا وهو الطفل . فمثل تلك الزوجة آنفة الذكر تود لاشعورياً أن تظل ابنة معتمدة وألا تكون أماً بالإضافة إلى كونها زوجة ، وعلى ذلك سيكون هذا الطفل سبباً فى حرمانها من بعض رغباتهـا ولذاتها إذ سيضطرها أن تكف عن اعتمادها

على والديها وأن تصبح هى مسئولة يعتمد عليها . ولكن عدم التهيؤ والاستعداد لقبول مثل هذا الموقف سيثير سخط الأم على الطفل فتجد فى كل هفوة له فعلا متعمداً الغرض منه مضايقتها . فتدأب على نقده وتأنيبه وتمسك عن كل مدح وثناء مما يكون له أسوأ الأثر على الطفل إذ يشعر بأنه منبوذ . وقد يستجيب لذلك بتلويث نفسه وفى هذا عقاب للأم على إهمالها إياه وفى الوقت نفسه فيه تحقيق لما ينشده وهو اهتمام أمه به ورعايتها له . وقد تبدأ هذه العاصفة الانفعالية الناتجة من مقاومة الأم اللاشعورية للأمومة بمجرد ولادتها للطفل فتظهر عليها أعراض المرض مما يجعلها لا تستطيع إرضاعه ويضطرها أن تتركه فى رعاية أشخاص آخرين .

ولن يختلف موقف الزوج الذى نشأ مدللا متعلقا بأمه من طفولته عن موقف تلك الزوجة المعتمدة على والديها . فإذا ماوجهت الأم انتباهها إلى ذلك المولود الذى لا حول له ولا قوة فإن الزوج الغيور يثور ضد منافسه الصغير ويتبرم بكل شىء يأتيه ، ويقيد من حريته إلى أقصى حد بحجة أنه يسعى إلى الهدوء والسكينة فى المنزل بعد العمل المضنى طيلة النهار الصاخب . فللطفل أن يفعل ما يشاء ما دام والده ليس بالمنزل ولكن عليه أن يكف عن كل حركة بمجرد أن يسمع وقع قدميه صاعداً على السلم ، ويذكر « فلوجل »[1] أن كل الحالات التى يستاء فيها الوالد من وجود الطفل ترجع إلى أن هذا الموقف يعيد إلى ذهن الأب الموقف القديم الذى عاناه فى طفولته المبكرة وهو الخاص بحب والديه لبعضهما . فإنه يعيش مرة ثانية فى هذا الموقف مع استبدال الأم بالزوجة والأب بالطفل . فبطريقة لاشعورية يتم التحويل وتتقمص الزوجة شخصية الأم وهذا تفسير الغيرة عليها ، بينما يحل الطفل محل الأب وهذا سر الشعور بالعداء نحوه .

وفى كلتا هاتين الحالتين يعمل الأب على أن يقوم بدوره ودور الأم معا ، وتحاول الأم أن تشغل مكان الأب الشاغر ولكن هذا لا يجدى إذ أن الطفل فى حاجة إلى كلا والديه كيما يتم التوازن فى تطور شخصيته . قد يستطيع أن يجد بديلا عن الأم فى مدارس الحضانة مثلا ولكن من الصعب أن يعوض الأب إذ أنه يمثل القوة التى تستند إليها الأم فى الأسرة .

---

1. Flugel : The Psycho-Analytic Study of the Family ch. XIV.

وقد يكون الحال عكس ما ذكرنا ، أعنى أن يكون الوالدان قد حرما من الحب فى طفولتهما . ففى هذه الحالة إذا جاء ولد فى الأسرة قد تتجه إليه الأم محاولة أن ترضى نزعتها إلى الحب . ولكن فى أغلب الحالات تكره الأم الابن لأنها لا شعوريا ستتمثل فيه صورة الأخ الذى كان منافساً لها فى طفولتها مثلا وكان سبباً فى حرمانها من حب والديها . وبذلك تتجدد الصراعات القديمة المكبوتة ، فنجدها ترمى الطفل بما كانت تود أن يكون عليه منافسوها ، فتقول عنه مثلا : إنه هادئ دائماً . . . . إنه يتحرك ببطء . . . . إنه يحتاج إلى إظهار شىء من النزعة العدوانية . . . إلخ . ويتأثر الطفل بمثل هذه الأقوال فعلى الرغم من أنها لا تمثل طبيعته فى شىء فإن تأثره بأمه يهيئ له أنه هو فعلا كذلك .

والحال بالمثل إذا كان الأب قد قاسى من معاملة أب جبار ، فإن كرهه المكبوت لأبيه يظهر عند ما ينجب ولداً ، خاصة إذا أطلق عليه اسم الجد تمشياً مع تلك العادة القديمة . فهنا نجد أن الأب سيتصور ابنه على أنه أبوه الراحل ويتصرف إزاءه كما كان أبوه يتصرف نحوه . لقد انعكس الدور فيصبح هو الأب والأب هو الطفل . ويطلق « أرنست جونز » على هذه العملية اسم "the phantasy of the reversal of generations" فالرجل ينتقم فى الواقع لنفسه من الطفل بعد أن فشل فى الانتقام من والده . فعلى الطفل أن يطيع الآن كل الأوامر وإذا خالفها حل به أشد أنواع العقاب .

وأذكر هنا حالة طالب فى السابعة عشرة من عمره أتى يشكو من اكتئاب شديد يعتريه ومن مراودة فكرة الانتحار له ، فقد يئس من الحياة ولا أمل له فى المستقبل إذ يخيل له أنه لن يستطيع مواصلة الدراسة لأنه فقد قدرته على تركيز الانتباه وأصبح كثير الشرود الذهنى .

بتتبع هذه الحالة اتضح أن علة اضطراب الطالب هى سوء معاملة والده له . فهو يحد من حريته حداً شديداً فيكاد يحاسبه على أنفاسه . ويحاول دائما أن يسخر من آرائه بل إنه ليلذ له أن يشاهد من يحط من قدره ويشجعهم على التمادى حتى يضطر الطالب إلى مغادرة المكان . لقد حاول الجحود والتذمر ولكنه يشعر بضعف نفسه أمام قوة الأب العنيفة ولذلك يضطر إلى الظهور بمظهر الخضوع والاستسلام على كره منه . بالسير خطوة أخرى وقفنا على سر معاملة الأب لابنه هذه

المعاملة القاسية . فقد توفى والده هو (أى الطالب) وهو طفل رضيع ثم تزوجت أمه رجلا قاسياً كان يعاقبه على ما يصدر عنه من أخطاء بسيطة بالحبس فى غرفة منعزلة لعدة أيام . ولقد حرمه من إكمال تعليمه بعد أن بدد ثروة أبيه وجعله يقاسى من حرمان مادى أليم . . . . فهذه الحالة توضح من غير شك تلك الفكرة السابقة .

ونمت ظاهرة نجدها لدى بعض الأمهات وهى كرههن لأنوثتهن . فتعد الأم الرضاعة مثلا شيئاً حيوانياً . ويؤثر هذا الشعور بطريق غير مباشر على الطفل إذ قد يقلل من اندفاع اللبن مما يجعل الطفل يترك الثدى مبكراً ويحرم من دفء لبنه ولذة مصه . فمثل هذه الأم تتمنى أن تكون رجلا وتسخط على أن خلقت امرأة وهذه إذا أنجبت ولداً سعدت سعادة لا مثيل لها . إنها تتقمص شخصيته لأنه يمثل لها ما كانت تود أن تكون عليه ؛ أما إذا وضعت بنتاً بعد ذلك فإنها لا بد أن تقف منها موقف العداء إذ ترى فيها ما لم تكن تتمناه . ومن هنا فإن كل ما تفعله البنت فهو خطأ يستحق العقاب بينما كل ما يقوم به الولد محمود يستحق الإطراء والاستحسان . ولا يخفى على البنت حقيقة الموقف فتشعر بأن أمها تكرهها . وأنها تنتهز كل فرصة لإيلامها ، ولكنها لا تدرى السبب الخفى وهو أن مولدها قد أثار بغض الأم المكبوت لجنسها فأعيد الصراع بينها وبين أنوثتها .

إن مثل هذه الأم تسى ء إلى ابنها وابنتها معاً . فسيضطر الولد إلى تقمص شخصية الأم ويظل ثابتاً عند الوجه السلبى من الصراع الأوديبى ما دام لم يُسمح له أن يختلط بالأب لتعلق الأم الشديد به . وهكذا يلازم الطفل أمه فى كل مكان تذهب إليه ، فيدخل معها المطبخ ، ويقوم عن طيب خاطر بغسل الأوانى وتنظيف الأرضية . . . . أما البنت فإنها سترفض كل شىء يمت إلى الأنوثة بصلة . وتصبح مثل أمها تنزع إلى الاسترجال . وعلى الأب فى مثل هذه الأسرة أن ينتحى جانباً وألا يأمل فى دور رئيسى إذا أراد السلامة لنفسه .

وقد يؤدى شعور البنت برغبة أمها فى إنجاب ولد إذا لم تكن قد أنجبت إلى اضطراب شديد يلحق بها . وتأتى « مرجريت روبن Margarete Ruben

بمثال لطفلة اسمها Eva[1] عمرها خمس سنوات كانت لا تستطيع فراق أمها لحظة واحدة ، ولا يمكنها النوم إذا لم تكن أختها الكبرى فى صحبتها . كانت تخاف الأغراب ، وإذا ذهبت مع أمها لقضاء بعض الحاجيات فإنها كانت تدفن وجهها فى ملابس أمها إذا حاول أحد التكلم معها . وقد ظهر قلق الطفلة إزاء والدها بوضوح ، فرفضت أن يراها عارية وكانت تبكى وتصيح إذا حاول الدخول وهى تستحم ، بل أخيراً أخذت لا تسمح له بتقبيلها أو ملامستها . وأصبحت تقوم مفزوعة فى الليالى الأخيرة . ولوحظ أيضا كرهها للعبها الحيوانات كما فقدت شغفها بعرائسها . ولكن كل هذه الأعراض لم تكترث لها الأم وجاءت تشكو من عدم قدرة الطفلة على تعلم اللغة الإنجليزية بحيث أنها لن تستطيع إدخالها فى المدرسة التى ترغبها .

فى إحدى الجلسات أخذت الطفلة تلعب بالصلصال فكونت جسم حصان فقط دون رأس أو رجلين أو ذيل على الرغم من أنها عند ما سئلت عن هذه الأشياء لم تنكر وجودها . وفى أثناء إجراء اختبارات "Buhler" كان يوجد اختبار خاص بتركيب عروسة خشب من أجزاء منفصلة تمثل الجذع والأطراف والرأس . ولكن الطفلة لم تستطع تبين الذراعين أو الساقين وبالتالى لم تستطع وضع تلك الأجزاء فى موضعها الصحيح . لقد ارتمت على الكرسى واحمر وجهها وأعلنت فشلها . وقد كان فشلها فى هذا الاختبار مثيراً للانتباه لأنه تبعاً لاختبارات أخرى ثبت أن قدرتها العقلية أكبر من عمرها بتسعة أشهر . ومن هاتين الاستجابتين وقفت « روبن » على حقيقة مشكلة إيفا فهى تنحصر فى قلقها من أجل تحطيم جسمها .

وعند استدعاء الأم أخذت تتكلم معظم الوقت عن نفسها ، فكانت ثائرة خوفاً من أن تكون حاملا وحالتهم المادية لا تحتمل نفقات طفل ثالث . ولكن « بما أن القدر قدر ذلك » فلن تجد هى وزوجها إلا الامتثال لحكمه . ولكن هذا الامتثال كان يرجع فى الواقع إلى رغبتها الشديدة فى أن يكون لها ولد لأنها أشرفت على الأربعين . ولكن خاب ظنها بعد ذلك إذ ظهر أنها ليست حاملا .

(١) Margarete Ruben : A Contribution to the Education of A Parent in the Psychoanalytic Study of the Child Vol I. 1945.

وفى ذات مرة قالت لصغيرتها إيفا . . . هلا كنت ولداً ؟ فانفجرت الطفلة بالبكاء . ويتضح من ذلك أن رغبة الأم فى إنجاب ولد قد أثارت صراعات لا شعورية فى الطفلة وهى الخاصة بحسد الولد على امتلاكه القضيب "penis envy" وما يتبع ذلك من شعور لدى البنت بأنها قد حرمت من ذلك عقابا لها .

وقد يفضل الأب البنت على الولد ، وذلك عند ما يكون فى طفولته قد شعر بوجود أكثر من أم وذلك بأن توجد جدة أو عمة أو مربية تلازمه تماماً . فهنا لا يكتفى الزوج بعلاقة واحدة وهى التى يجب أن تكون مع زوجته وإنما يأخذ ابنته كمنافسة لهذه الزوجة التى تضطر أن تقف موقفاً سلبياً وتكون أشبه بمربية لا أكثر ولا أقل . وكلا الموقفين سواء أكان موقف الأم التى تفضل ابنها أم موقف الأب الذى يحابى ابنته ليس بالمرغوب فيه ولا بالمستحسن سواء للآباء أو الأبناء .

ويتجلى أثر اللاشعور فى موقف الوالدين من الإجابة على أسئلة أبنائهم المتعلقة بالأمور الجنسية . فهذه المسائل يحاول الطفل الاستفسار عنها ولكن غالبا لا يجد من يجيب على استفساره بصدق وبالقدر الذى يستطيع أن يفهمه . وفى الواقع أن الآباء هنا تصدر منهم استجابة ثأرية لا شعورية نتيجة لما صادفوه فى طفولتهم . فهم يصبغون هذه الأمور بطابع السرية ، ويحيطونها بسياج من الكتمان ، فينتقل المضمون الغامض من جيل إلى جيل . وكل ذلك يتم بصورة لاشعورية فلا يتبين الوالدان حقيقة ما يفعلان بل إنهما ليثوران إذا نبههما أحد إلى هذه الحقيقة .

ويحدد اللاشعور أيضاً موقف الوالدين من أبنائهم إذا أصيبوا بانحراف جنسى فيظهر الهلع والجزع إذا مس فيهما صراعاً مكبوتاً ، وبناء على ذلك فإنهما يسيئان إلى أبنائهم بدلا من مساعدتهم . خصوصاً إذا رأى المعالج أن يقوم الأب أو الأم بعلاج الطفل تحت إرشاده وذلك كما فعل فرويد لأول مرة فى حالة "Little Hans" فقد قام الأب مقام المحلل .

ونشاهد هذا الأثر فى حالة والدة إيفا التى ذكرتها « روبن » . فهى قد أحضرت « إيفا » وأختها الكبرى "Henny" أيضا التى تبلغ ٩ سنوات للعلاج . فنجحت فى العلاج مع « إيفا » ولكنها فشلت مع « هنى » لشعورها الماسوكى

السادى إزاءها . ولقد وصفتها بأنها عاطفية بينما تعد « إيفا » باردة . وكانت عاطفة الأم قوية من ناحية « هنى » لأنها ظلت فتاتها الوحيدة لمدة خمس سنوات ، فأصبح لها منزلة خاصة إذ كانت الأم هى الأخرى فتاة وحيدة . وقد ذكرت بشىء من القلق أن « إيفا » تمارس الاستمناء وذلك تقليداً « لهنى » التى تخشى أن تكون قد ورثت هذه العادة عنها هى نفسها . وبناء على ذلك لم تستطع التعاون فى علاج « هنى » إذ كانت تستعمل التفسيرات لمضايقة الطفلة ، فقد كان فى الواقع عقاباً للأم ذاتها بطريق لا شعورى . وكانت تجد صعوبة أيضا فى قبول تفسيرات تخيلات « إيفا » . وكانت تعلق قائلة إنها هى لم تكن تفكر مطلقاً فى مثل هذه الأشياء عند ما كانت طفلة .

وقد حاولت « روبن » أن تحل صراعات الأم اللاشعورية وكان يسير علاج الطفلتين سيراً مرضياً طالما لا تعكس الأم مشاكلها على مشاكل الطفلتين . وتنتهى « روبن » من دراسة هذه الحالة بالتساؤل عن حقيقة الموقف هنا : فهل هو يرجع إلى أن الصراعات المكبوتة تعود إلى الظهور ثانية فى ذهن الأم عند ما يعانيها الطفل فى مجرى تطوره العادى أم أنها تصل إلى الطفل لأنها موجودة دائماً فى ذهن الأم اللاشعورى ؟

نستطيع أن نجيب على هذا التساؤل بقولنا إنه يوجد الجانبان ، فأحياناً يستجيب الأم لاشعورياً لتطور طفلها وأحياناً أخرى يستجيب الطفل لرغبة أمه اللاشعورية . فنجد مثلا « مرجريت فريس "Margeret E. Fries" (١) نستشهد بحالة مسز ا التى كانت تستجيب لكل مرحلة من مراحل تطور ابنتها . فلقد كانت لاشعورياً تطيل مدة طفولة ابنتها محاولة تأخير نضج شخصيتها . إنها هى لم تكن سعيدة فى فترة المراهقة ولم تمر بها مروراً عادياً وقد نشطت هذه الانفعالات المكبوتة عند ما بلغت ابنتها الحادية عشر وابتدأت تحيض ، فسيطرت عليها دوافعها العصابية وجعلتها لا تسمح لفتاتها بمواجهة الواقع حتى تقوى ابنتها .

أما الجانب الآخر وهو الخاص باستجابة الطفل لرغبة أمه اللاشعورية فقد

(١) Margaret Fries : The Child's Ego Development ..... in the Psychoanalytic Study of the Child vol. II. 1946.

عرضت له « مليتا سبرلنج "Melitta Sperling" »[١] . وهى تعد هذه العملية تخاطراً[٢] أو تحويلا فكرياً . فرغبة الأم تنتقل إلى الطفل عن طريق بعض الإشارات التى لا تقدرها الأم ولكن يكون الأطفال فى الواقع شديدى الحساسية لها . فيوجد بين الأم وطفلها اتصال يسبق الاتصال اللفظى . فلقد دلت الأبحاث الكلينيكية على أن شعور الأم ولا شعورها ينتقلان إلى الطفل خلال كل شىء تقوم بفعله له . فهو يشعر بالراحة أو الكدر إزاء نبرات صوت الأم أو ملامسة يديها له أثناء مساعدتها له على ارتداء ملابسه أو خلعها . ففهمه لأمه ليس بمقصور على عملية الرضاعة . وتصل « رنيه سپتز "René Spitz" »[٣] من ملاحظتها للأطفال فى السنة الأولى إلى أنه تعبيرات وجه الأم يكون لها تأثيرها على الطفل منذ الشهر الثالث . فإذا كان الأثر سيئاً فإن علامات القلق تتجلى فى بكاء الطفل كلما رأى وجه شخص كبير .

نعود إلى « سبرلنج » فنجد أنها تستدل بحالات على أن بعض الأبناء لا يستجيبون إلى المضمون الظاهر لكلام آبائهم وإنما يستجيبون للجانب اللاشعورى . ومن هذه الحالات نذكر حالة أم كانت منكفة للغاية فتقمصت شخصية ابنتها « لورا » البالغة من العمر خمس سنوات ، فكانت تشبع دوافعها السادية المنكفة عن طريقها . فلقد وجدت « لورا » صعوبة فى مخالطة أطفال المدرسة التى التحقت بها على الرغم من أنها كانت تود أن تكون صديقة لهم ، ولكنها كانت تجد نفسها مجبرة على إظهار العداء لهم مما جعل الأطفال يطلقون عليها اسم "naughty Laura" . وكانت الأم طفلة نموذجية فى صغرها وكانت تظهر عجبها من سلوك ابنتها خاصة وقد بدأت توجه ألفاظاً جارحة إلى جدتها وخالتها الساكنتين

---

(١) Melitta Sperling : Children's Interpretation & Reaction to the. Unconscions of their Mothers in Inten. Jour. of Psychoanal. vtol XXXI. 1950 parts 112.

(٢) التخاطر : الانتقال عن بعد للخواطر والوجدانيات وغيرها من التجارب الشعورية المعقدة من عقل إلى عقل على سبيل الوهلة . مع الزعم بأن هذا الانتقال يتم بغير الوسائل الحسية المعروفة . مجلة علم النفس . عدد يونية سنة ١٩٤٥ . « باب التعريفات » .

(٣) René Spitz : Anxiety in Infancy..... in Inter. Jour. of Psychoanal. vol. XXXI. 1950.

معهم على الرغم من أنها كانتا تعاملانها معاملة حسنة للغاية . ولكن تحليل الأم أثبت أن الطفلة ما فعلت ذلك إلا تحت تأثير إغراء لاشعورى من جانب الأم . فقد كانت تجهل حقيقة شعورها إزاء أمها وأختها ولكن بالتحليل تبين لها أنها تكرههما فعلا وهنا فزعت لأن « لورا » استطاعت أن تقرأ أفكارها . وفى ذات مرة أنبت الطفلة على سلوكها العدائى لجدتها وخالتها وهنا قالت الطفلة : « ولكنك أنت تكرهيهما يا أماه . . . إنك تر يدنى أن أفعل ذلك . . . » وقد سألتها الأم عما جعلها تعتقد ذلك فأجابتها بأنها سمعتها تحادثهما فى التليفون واستطاعت أن تشعر بأنها تكرههما . وبذلك اتضح للأم بجلاء أن لاشعورها قد عكس نفسه على ابنتها وجعلها تسلك ذلك السلوك .

ونأتى بحالة ثانية ذكرها « أبرندروف "Oberndorf" »[1] تبين بجلاء أيضاً استجابة ابن لرغبة أمه اللاشعورية . فكان هذا الابن عمره ٣ سنوات ، ابتدأ يقرص أمه ويضربها إذا شـــاهد والده يقبلها ، ويخبطها إذا سمع أحداً يخاطبها بصوت مرتفع . ومنذ نمت أسنانه أخذ يعضها فى ذراعيها أو رجليها إذا شعر بأن والده يوجه إليها أى اهتمام .

بالرجوع إلى تاريخ الأم أزيح الستار عن العوامل التى أدت بالطفل أن يسلك هذا السلوك الشاذ . فلقد كانت الابنة المفضلة لأب مستبد ، فعلى الرغم من حزمه وشدته مع زوجته وباقى أفراد الأسرة إلا أنه كان يلبى لها كل رغباتها . وقد تزوجت فى سن التاسعة عشرة شاباً ضخما ، غير مهذب . وكانت تحبه للغاية ولكن بعد ليلة الزفاف انقلبت علاقتها به . فقد تغير ذلك الزوج بين عشية وضحاها من شخص تعجب به إلى إنسان جان ، غليظ تخجل أن تظهر معه فى المجتمعات . وفى رحلة شهر العسل أصيبت بغشيان واكتئاب ملحوظ . . . وأخيراً اضطرا إلى الطلاق بعد سنة من زواجهما . وظلت ٦ أشهر ثم تزوجت رجلا أكبر من زوجها السابق قليلا ، ناجحاً فى عمله ، هادئ الطبع . وعلى الرغم من أنها كانت فى صحة جيدة فى الفترة التى بين طلاقها وزواجها الثانى إلا أن تلك الأعراض السابقة قد ظهرت بعد الاحتفال بالزواج الثانى مباشرة .

---

(١) Oberndrof : Child-Parent Relationship in Psycho-analysis today by Sandor Lorand.

وقد ولد الطفل التى جاءت تشكو منه بعد سنة من زواجها الثانى ، وكانت طيلة فترة الحمل تعانى الغثيان ، وظلت ملازمة الفراش ما يقرب من سنتين بعد ولادة الطفل على الرغم من عـــدم وجود أعراض جسمية . وقد تبين أن سبب تحسن صحتها بعد بلوغ الطفل سن سنتين هو أنه بذلك السن يستطيع أن يقف موقفاً إيجابياً ويحقق لها بعض رغباتها اللاشعورية . فقد أظهر تحليلها أنها ما زالت متعلقة بزوجها الأول الغليظ وكانت تتضايق من وداعة الثانى ومن خلوه من الصفات التى كانت تعجب بها فى أبيها . وهكذا فقد أرادت أن تعوض فشلها فى زيجتها الثانية بالتعلق الشديد بطفلها .

وهذا التعلق الشديد جعل الطفل لا يطيق أى منافس له فى حب أمه ، وهذا الذى كان يدفعه إلى الهجوم على أمه كلما سمع أحداً يخاطبها بصوت مرتفع . إذ تبعاً لخبرته الخاصة استدل على أن الصوت المرتفع يدل على الغضب ويتضمن أيضا العقاب . ومن ثم كان كلما سمع أحداً يكلم أمه بصوت مرتفع اعتقد أنها أتت أمراً نكراً فيشترك فى إنزال العقاب بها وبعد ذلك قصاصاً عادلا لعدم قصرها حبها عليه .

وينتهى « أبرندروف » من دراسة هذه الحالة إلى أن « شقاوة » الأطفال يثيرها أحياناً أحد الوالدين بطريقة لاشـــعورية بل أنه ليؤيدها ويشجعها . فهذه الأم كانت تقابل هجمات ابنها ضاحكة فى عذوبة ولم تشكُ إلا بعد أن أصبح الطفل عنيفاً جداً فى اعتدائه فكان يسيل الدم من ساقها فى بعض الأحيان ، ويترك آثاراً زرقاء سوداء فى ذراعيها من قرصه . فلولا أن الطفل أشبع رغبة لاشعورية لدى الأم ما سمحت له بفعل كل ذلك . وفى الواقع أن هذه الزوجة كانت تدعو زوجها لاشعوريا أن يحذو حذو ابنه ، فيصبغ سلوكه معها بشىء من العنف والقسوة إذا أراد أن تحبه كما تحب طفلها . ومن جهة أخرى نلاحظ أنها تعد نفسها مذنبة لقيامها بدور الذكر المعتدى والزوجة غير المحبوبة ومن هنا فإن ضرب الطفل لها سيهدئ من إحساسها اللاشعورى بالذنب والخطيئة .

* * *

يتبين لنا من كل هذا أن الآباء لو فهموا حقيقة أنفسهم أولا وطبيعة الطفل ثانياً لما قالوا : « لقد كنا سعداء قبل أن ننجب الأولاد . . . . لقد نشأت المتاعب منذ أن جاء الطفل إلى الوجود . . . . » فى الواقع أنهم يسقطون صراعهم الداخلى فى علاقتهم بابنائهم . بل لنجد منهم مقاومة أحياناً إزاء علاج هؤلاء الأبناء إذا اضطربوا . ونحن نعرف أن الطفل لا يأتى من تلقاء نفسه للطبيب وعلى ذلك إذا لم يوجد التعاون من جانب والديه فلن يتم سير العلاج . فبينما فى علاج البالغين نتحاشى أى اتصال بأسرة المريض فإننا لا نستغنى عن الاتصال المستمر بالأم فى حالة الطفل لتعدل من طرق تربيتها بما يتوافق وسير التحليل . وقد شاهدنا أنه يترك أحياناً العلاج كله للأب أو الأم . وفى أحيان أخرى يستعان بالأم فى العيادة فيسمح لها بحضور الجلسات . فقد اضطرت "Hedy Schwarz"[1] إلى ذلك عند ما أتى لها طفل كانت لا تستطيع فهم لغته الطفلية فكانت تستعين بالأم لتقوم بالترجمة . ولكنها تبينت أن لهذه الطريقة ميزتها العظيمة إذ أنها تعطينا فرصة لدراسة المجرى الانفعالى بين الأم وطفلها وكيفية تعرضها لاضطراباته ، وبهذا تفصح عن دوافعها اللاشعورية وتفسر لها وبذلك يتجنب طغيان مشاكلها وتعكيرها جو التحليل . ثم إن إشراك الأم بهذه الطريقة لن يجعل مجالا لغضبها عند ما نشاهد نشوء العلاقة القوية بين المحلل أو المحللة وطفلها . وبعد مدة سيأتى الطفل بمفرده إلى العيادة ولكن قبل ذلك يجب أن نهيىء الأم لمثل هذا الانفصال عن طفلها . فيجب أن تعوض عن ذلك بمقابلات خاصة لها بمفردها تعطى فيها معلومات مفصلة عن سير التحليل . وبعد فطم الأم عن المجىء إلى العيادة يجب أن تظل مواظبة على إرسال تقريرات وافية عن سلوك الطفل اليومى . ومن ثم فإنها ستشعر بأنها شريكة فى العلاج وإن كانت لا تحضر إلى العيادة .

ولا يكفى أن تحل مشاكل الآباء وإنما يجب أن يتبينوا طبيعة طفلهم « فيجرعوه تجارب الحياة بقدر وكيفية يتفقان وحالته الجسمية والعقلية والانفعالية على حد تعبير M. Fries فيجب أن يعرفوا نوع النشاط الجبلى الذى جبل عليه الطفل . فهناك الطفل الهادئ وهناك الطفل المتوسط وهناك الطفل النشط ، ولا شك أن كل واحد

(١) Hedy Schwarz : The Mother in the Consulting Room in the Psychoanalytic Study of the Child vol. V.

يختلف عن الآخر فى استجابته لموقف معين . كذلك يختلف الأطفال فيما بينهم تبعاً للسن فى الحالة الجسمية والذهنية . فيجب أن يراعى التوافق فكما لا يمكن إطعام الطفل مواد جامدة إلا إذا استطاع أن يهضمها ويتمثلها فكذلك لا يمكن تعليمه إلا إذا وصل إلى المستوى الذهنى الذى يسمح له بذلك . كذلك يجب ملاحظة عدم تعريض الطفل لمواقف من الحياة لا يستطيع أن يواجهها بطريقة مرضية من الناحية الانفعالية . إن ما يساعد على تكوين أنا قوية متماسكة هو تغلب التجارب المتكاملة فتساعد الطفل على أن يمر بمرحلة التحصيل دون أن يعانى قلقاً عنيفاً يعوق تطور إنيته ويضعفها .

فائزة على كامل

النظرية الجشطلتية *

بقلم

مصطفى سويف

فى أوائل النصف الثانى من القرن الـ ١٩ كان التفسير الميكانيكى لظواهر الوجود المختلفة هو السائد فى الدوائر العلمية[1]. فكل ظاهرة تواجه الباحث ما عليه إلا أن يحللها إلى عناصرها الأولية ، فإذا تم له ذلك فقد عرف طبيعتها الجوهرية ، وما عليه إلا أن يجمّع هذه العناصر بعضها إلى بعض وعندئذ ستعود الظاهرة إلى الوجود ، ومجموع معلوماته عن العناصر يكوّن العلم بقوانين هذه الظاهرة .

والنزعة الترابطية associationism هى – بمعنى ما – نتاج هذه النظرة فى ميدان علم النفس ، ويجب أن نوسع هنا معنى الترابطية حتى تشمل أيضاً التعليل بسلاسل الأفعال المنعكسة والأفعال المنعكسة الشرطية . وخلاصة هذه النزعة أن الوقائع النفسية سواء أكانت خبرات نتلقاها أم أفعالا نقوم بها ، تتألف من عناصر أولية هى الإحساسات المباشرة فى حالة الخبرات وهى التنبيهات والاستجابات فى حالة الأفعال ؛ وأن تعرُّف قوانين التداعى فى الحالة الأولى وقوانين التنبيه والاستجابة وما قد ينشأ بين بعض الاستجابات وبعض المنبهات من ارتباطات شرطية هى مهمة علم النفس .

غير أن معظم علماء النفس فى تلك الفترة بل وقبلها بعشرات السنين كانوا يشعرون بأن الترابطية تحمل فى طياتها كثيراً من التعسف والافتعال artificiality وأن الحياة النفسية فى الواقع تختلف كثيراً عما يتقرر عنها فى الكتب وفى المعامل السيكولوجية . وكان بعض هؤلاء العلماء يبدى تحفظه بأن يقدم بعض التعديل لجوانب فى الترابطية ولكنه تعديل طفيف لا يمس جوهرها فى قليل ولا كثير ؛ ومن هذا

* محاضرة ألقيت فى جمعية الدراسات النفسية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، فى مارس سنة ١٩٥١ .

(١) « معنى التكامل الاجتماعى عند برجسون » بقلم مصطفى سويف – مجلة علم النفس – مجلده عدد٢

الطراز من العلماء توماس براون T. Brown وجون ستيوارت مل J. S. Mill ؛ والبعض الآخر حاول أن يفعل شيئاً أكبر من ذلك وأقوى ، حاول أن يصيب الترابطية فى الصميم ، ومن هؤلاء فلورنز P. Flourens وبنيكه F. Beneke ؛ ولكن للقضاء على نظرية علمية قائمة أو بالأحرى للقضاء على منهج علمى ذائع — لأن التفسير الميكانيكى ليس نظرية بل هو منهج — لا يكفى أن تقدم الحقائق التى تدحض أو الحجج التى تبين خطأه ونقصه ، بل يجب أن تقدم منهجاً آخر بدلا منه . ولكن هذا لم يتيسر لفلورنز وبنيكه ، فظل الميدان خلواً أمام الترابطية .

وفى أواخر القرن اشتد الشعور بضعف التفسير الميكانيكى ، لا فى ميدان علم النفس فحسب بل وفى سائر الميادين العلمية أيضاً ؛ إلا أن ضعفه ونقصه كان أوضح فى العلوم التى تتناول الحياة موضوعاً لها . وقد ظهر لكثير من العلماء والمفكرين أن الحياة لا تقبل هذا التقسيم أو التحليل . فالكائن الحى إذا تناولناه بنظرة تحليلية كان لزاماً علينا أن نتناوله بالتشريح لننظر فى أعضائه عضواً عضواً ، ولننظر فى أنسجة كل عضو نسيجاً نسيجاً ؛ ولكن مثل هذا التناول من شأنه أن يقضى على الحياة نفسها ، ومن ثم فستفلت الحياة من المعمل وستبقى أمامنا أنسجة ميتة ، وتلك مادة أخرى غير مادة البحث التى قصدنا إليها أصلا وهى « الكائن الحى » . وظواهر الحياة النفسية أمرها كأمر هذه الحياة البيولوجية . خذ الشخصية مثلا ، وحاول أن تحللها إلى عناصرها الأولية ، ثم انظر فى مجموعة الصفات أو الخصائص التى انتهيت إليها ، فستجدها قليلة الجدوى فى معرفتك للشخصية من حيث هى بناء له وحدته وتكامله ، وستظل قليلة الجدوى حتى ولو زادت عشرة أضعاف حجمها الحاضر ، وذلك لأن للشخصية من حيث هى « بناء » صفات وخصائص لا تتوفر فى أى جزء من أجزائها ، كأن تقول مثلا إنها شخصية مرنة ، أو هذه شخصية سريعة التقلب ، أو هى شخصيه متحجرة فتلك صفات لا تصدق على أى جزء من أجزائها ولكنها تصدق عليها ككل .

هذه الآراء وما إليها ، عن وحدة الحياة وعدم قابليتها للتقسيم أو التحليل كانت تدور بأذهان بعض العلماء فى أواخر القرن الـ ١٩ ، وكانت تجد الكثير مما يؤيدها ، وكانت تبحث عن منهج يلائم هذه الزاوية الجديدة التى تنظر منها ويستطيع أن يقف فى وجه النظرة الميكانيكية لينجز ما تعجز عنه بطبيعتها .

واستجابة لهذه الحاجة ظهرت الفلسفة الحيوية Vitalism ، تدعو إلى اعتبار الحياة وحدة متصلة وعدم تناولها بنظرة تحليلية ، وكان من أكبر دعاتها دريش H. Driesch وبرجسون H. Bergson . إلا أن الفلسفة الحيوية لم تقدم منهجاً علمياً آخر لدراسة الحياة ، بل لقد ثارت على العلم من حيث هو علم. لأنها اعتبرت النظرة الميكانيكية جوهره ولُبه ، ولما كانت الحياة بطبيعتها لا تقبل هذه النظرة ، فمعنى ذلك أن الحياة لا يمكن أن تكون موضعاً لدراسة علمية. وقالت الفلسفة الحيوية إن الكائن الحى يتألف من جوهرين : مبدأ الحياة وهو مبدأ التكامل والوحدة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى الجسم ، أى المادة التى تقبل التقسيم والتحليل . ومن ثم فللعلم أن ينظر فى المادة ولكن ليس له أن ينظر فى مبدأ الحياة والتكامل والوحدة .

على أن الفلسفة الحيوية بموقفها هذا أثبتت أنها هى نفسها فلسفة ميكانيكية ، فهذا التقسيم إلى جوهرين متجاورين لكنهما غير متفاعلين ، وتقسيم خصائص الكائن إلى خصائص تأتى عن مبدأ الحياة وأخرى تأتى عن المادة أو الجسم[1]، هو بعينه الفلسفة الميكانيكية وإن بدت فى ثوب جديد .

وإذاً فقد ظل ميدان علوم الحياة بحاجته الأولى ، حاجته إلى منهج جديد غير المنهج التحليلى الميكانيكى . وظهرت فى نهاية القرن الـ ١٩ وأوائل العشرين بحوث ونظريات سيكولوجية تعتبر إلى حد كبير محاولات للخروج على الميكانيكية ، ومن هذا القبيل نظريتا التحليل النفسى والغرائز ، إلا أن هاتين النظريتين رغم التقدم الذى حققاه للبحوث النفسية ، لم يتمكنا من تحقيق التقدم الحاسم المنشود ، بل لقد تسربت إليهما كثير من خصائص الفلسفة الميكانيكية .

وفى العقد الثانى من القرن العشرين ظهرت بوادر النظرية الجشطلتية ، ظهرت استجابة لهذه الحاجة العلمية السائدة ، ولا يكفى أن نقول مع وودورث R.Woodworth إنها ظهرت كثورة على الترابطية ، لأن الثورة يجب أن تكون استجابة لحاجات سائدة حتى يقدر لها النجاح ، وإلا فستمضى دون أن تخلف أثراً كبيراً .

النظرية الجشطلتية ثورة ، واستجابة ، وتبلور . ثورة على منهج ميكانيكى سائد ،

---

(١) « التأملات » لديكارت — ترجمة الدكتور عثمان أمين — مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة سنة ١٩٥١ — ص ٢٣٤

واستجابة لحاجة إلى تغيير هذا المنهج والعدول عنه ، وتبلور لمحاولات متفاوتة الحظ من التوفيق والفشل فى توفير المنهج الجديد الذى سيحل محل المنهج القديم . فهى بهذا المعنى وثبة وتطور كيفى فى تاريخ علم النفس .

يؤرخون بوادرها بالبحوث التى أجراها فرتهيمر فى الحركة سنة ١٩١٢ . فقد تبين له بالتجربة أننا قد نرى شيئاً ما يتحرك مع أنه فى الواقع لا يتحرك ، كما يحدث عند ما نرى الأشخاص فى الفيلم السينمائى يذهبون ويجيئون ، مع أن الشريط السينمائى لا يحتوى إلا على صور لأوضاع ساكنة . فلنفرض أننا تناولنا هذه الحركة الظاهرية بنظرة تحليلية ، فسنقضى عليها عندئذ ، لأننا لن نجدها فى أى عنصر من العناصر التى ستنتهى إليها من التحليل ، لن نجد سوى صور لأوضاع ساكنة ، وبالتالى إحساسات متتالية بأوضاع ساكنة . لابد إذاً من منهج آخر لبحثها ، ويشترط فى هذا المنهج أن يتناولها ككل ، أى كما تظهر فعلا ، حتى لا يقضى عليها أو يشوهها . يجب أن يكون فى مقدور المنهج الجديد أن يتناول الظاهرة كوحدة لا كمجموعة وحدات .

وشغل فرتهيمر M. Wertheimer وكهلر W. Kohler وكوفكا K. Koffka ، بتوضيح جوانب هذا المنهج الجديد ؛ وفى العقد الثالث من القرن العشرين بدأت تظهر المقالات المنهجية المنتظرة . وبدأ علماء النفس يشعرون بأهمية هذا التيار الجديد . وقيض لهذا التيار نوعان من العقول لا يدمنهما معاً إذا لم تتوفر خصائصهما لعقل واحد ؛ فقرتهيمر الأستاذ الأكبر يمثل العقل الملهم ، العقل الذى يلهم بومضات متقطعة لكنها باهرة النور ، وكهلر وكوفكا ولڤين K. Lewin يحاولون الاهتداء على ضوء هذه الإلهامات واستغلالها كمفاتيح للبحث واستخلاص إمكانياتها ، كل ذلك دون أن يفوتهم أن التجربة الحاسمة هى الحكم الفصل فى النهاية .

فالنظرية الجشطلتية ليست مجرد نظرية فى علم النفس ، بل هى ليست نظرية بالمعنى الضيق للكلمة ، إنها اتجاه أو منهج فكرى نستطيع على ضوئه أن نقيم عدة نظريات ، لا فى علم النفس فحسب ، ولا فى الدراسات النفسية والاجتماعية فحسب ، بل فى هذه وفى الدراسات البيولوجية والفيزيولوجية والفيزيقية أيضاً . فهى بهذا المعنى تختلف اختلافاً حاسماً عن سائر النظريات التى يرد ذكرها فى تاريخ علم النفس ، فيما عدا الترابطية ، التى تمثل هى الأخرى منهجاً علمياً عاماً . على أن هذا التشابه الشكلى مع الترابطية ، يخفى وراءه اختلافاً حاسماً فى المضمون .

جوهر النظرية الجشطلتية يمكن تلخيصه فيما يلى :

هناك أبنية أو أجهزة أو كليات wholes لا يتحدد سلوكها على أساس سلوك عناصرها كل عنصر على حدة ، بل على الضد من ذلك نجد أن سلوك هذه العناصر يتحدد على أساس سلوك الكل أو البناء العام (١) .

هذه هى المشكلة الرئيسية التى تواجه علماء الجشطلت ، ومن ثم فقد حددوا مهمتهم بأنها محاولة التعرف على سلوك البناء أو الجشطلت . وعن طريق هذه المعرفة سنعرف سلوك الأجزاء . فعلماء الجشطلت لا ينكرون وجود الأجزاء ، ولكنهم ينكرون القول بأن هذه الأجزاء عناصر منعزلة بعضها عن بعض ، وبالتالى ينكرون أوليتها على البناء الذى يضمها . ينكرون أن سلوك البناء هو مجموع حركاتها .

على أن النظرية الجشطلتية لا تقحم نفسها فى تأملات نظرية ومناقشات بيزنطية، هى لا تناقش المشكلات الجوفاء ، لا تناقش مثلا مشكلة الأسبقية : هل الكل سابق على الأجزاء أم الأجزاء سابقة على الكل ؟ لا تناقش هذه المشكلة وأمثالها لأنها لا تقصد إلى مجرد التمرين العقلى والجدل اللفظى ؛ إنما تقرر فقط أن سلوك الكل يعيّن سلوك الأجزاء ، وهذا القرار بمثابة الفرض العلمى ، تقيمه على أساس بعض التجارب وبعض المشاهدات العامة النافذة ، ثم تتخذ منه مفتاحاً لتناول عدة مشكلات فى عدة ميادين مختلفة ، والكلمة الأخيرة فى النهاية ، للتجربة الحاسمة .

لا يكفى أن نقول إن الخبرة الإدراكية كل أو جشطلت ، ولا يكفى أن نقول إن الشخصية كل أوجشطلت ، أو إن المجتمع أو النظام الشمسى كل أوجشطلت ، فهذه العبارات وحدها جوفاء، يجب أن نبين أى نوع من الكل هذه الخبرة أو هذه الشخصية أو هذا المجتمع أو هذا النظام الشمسى ؛ هل هو كل متجانس أم كل غير متجانس ، بسيط أم مركب ، استاتيكى أم ديناميكى ، منعزل عن بيئته أم يؤلف معها كلا أكبر ، وهل تكون علاقته بهذه البيئة واحدة دائماً أم تتغير من حين لآخر ، وإذا كانت تتغير فكيف ؟ وهل البيئة نفسها بناء له وحدته أم مجموعة من العوامل فحسب . وهكذا وهكذا . أسئلة لا نهاية لها لا يحسمها إلا البحث التجريبى . فالقول بأننا بصدد جشطلت ليس نهاية بحث ، بل هو بداية بحث ، لاستخلاص قوانين هذا الجشطلت .

(١) "Gestalt Theory", M. Wertheimer, ("A Source Book of Gestalt Psychology", ed. by W. Ellis, London, 1938, K.P.)

وهكذا بدأ العلماء الجشطلتيون سلسلة من البحوث التجريبية ، مستلهمين هذا الفرض العلمى الكبير .

١ – أجرى فرتهيمر بحوثاً تجريبية فى الإدراك . فانتهى إلى أن الخبرة الإدراكية ليست مجرد تجميع لعدد من التنبيهات التى نتلقاها ، بل هى تنظيم لهذه التنبيهات ، على أساس مجموعة من القوانين ، أهمها : قانون التقارب وقانون التشابه وقانون الشكل والأرضية وقانون الاستمرار الجيد . كما أثبت أن أثر الخبرة الماضية فى تكييف إدراكنا للأشياء أثر محدود ولا يمكن الالتجاء إليها فى كل الأحوال . والمهم فى هذه التجارب أنها تثرى فكرتنا عن الكل ، فالخبرة الإدراكية بوجه عام جشطلت ، ولكنا نتلقى خبرات كثيرة متنوعة ، من نفس المجموعة من العناصر أحياناً ، فما شروط ظهور هذه الخبرة أو تلك ؟ الجواب فى قوانين التنظيم التى توصل إليها (١) .

٢ – وأجرى كهلر مجموعة من البحوث التجريبية فى الإدراك أيضاً ، ولكن على الدجاج . وذلك ليتبين هل الخبرة الإدراكية هى فى جوهرها جشطلت ، أم أن هذه الخاصية فيها متوقفة على عمليات عقلية عليا يجريها الشخص كالاستنباط والاستدلال . أتى بمجموعة من الدجاج وكان يواجهها بإناءين أحدهما رمادى قاتم والآخر رمادى فاتح ، وكان يضع لها الغذاء فى الإناء القاتم ، فلما تعلمت ذلك بعد عدة مرات كانت تقصد مباشرة إلى الإناء القاتم دون أن تتخبط . وكان معنى ذلك فى نظر علم النفس التقليدى الميكانيكى – وعند السلوكيين بوجه خاص – أنه قد تكون لدى الدجاج ارتباط شرطى بين هذا اللون القاتم وبين إشباع الجوع . فتقدم كهلر لامتحان هذا التفسير بأن أحدث تغييراً فى بيئة الإناء القاتم ، إذ أبعد الإناء الفاتح ووضع بدلا منه إناء آخر رمادياً ولكنه أقتم من الإناء الذى اعتاد الدجاج أن يقصده ليجد الطعام فيه ، وعندئذ قصد الدجاج إلى الإناء الأقتم ولم يقصد إلى الإناء القاتم . وهذا السلوك لا يمكن تفسيره على ضوء الفعل المنعكس الشرطى . إن الدجاج لم يدرك إناء الطعام باعتباره ذا لون معين فحسب ، ولكنه أدركه كجزء فى جشطلت ، أدركه باعتباره « الأقتم » ، ومن ثم فقد استجاب فى التجربة الحاسمة للإناء الأقتم (٢) .

(١) "Laws of Organization in Perceptual Forms", M. Wertheimer, ("A Source Book of Gestalt Psychology", W. Ellis).

(٢) "Simple Structural Functions in the Chimpanzee and in the Chicken" W. Kohler, ("A Source Book of Gestalt Psychology", W. Ellis).

ومعنى ذلك أن الخبرة الإدراكية من حيث هى جشطلت ، لا تتوقف على قيام الوظائف العقلية العليا .

٣ – وأجرى لفين عدة بحوث فى موضوعات الفعل والإرادة والشخصية . فانتهى إلى أنه لا يمكن معالجة أية عملية سلوكية دون اعتبار :

(ا) الخصائص الإلزامية لجوانب البيئة المختلفة ، ويطلق عليها اسم valences .

(ب) والطاقات النفسية لدى الكائن .

وبدون الأولى لا نستطيع أن نتكلم عن ضبط السلوك وتوجيهه ، وبدون الثانية لا نستطيع أن نعلل اندفاعه[١] .

إن هذا الرأى من لفين قد يبدو بديهياً ، وقد قال كثير من علماء النفس بما يشبهه ، قالوا إننا فى تعليلنا للسلوك يجب أن نحسب حساب إمكانيات البيئة واستعدادات الكائن ؛ ولكن العبرة بالمضمون . العبرة بالخطوات التى سيرتبها الباحث على مثل هذه القضية العامة . قال مكدوجل مثل هذه العبارة ، ولكنه عاد فتكلم عن الغرائز ، وبذلك حطم جوهر القضية الدينامية . والسلوكيون فعلوا عكس ما فعل ، فنسوا استعدادات الكائن واقتصروا على الاهتمام بالمنبهات ، وما على الكائن إلا أن يستجيب كأنه آلة .

أما النظرية الجشطلتية فلا ترى انفصالا بين الكائن والبيئة ؛ ولذلك تقدم تفرقة هامة بين معنيين للبيئة ، البيئة الجغرافية والبيئة السلوكية ، واصطلاح البيئة الجغرافية يشير إلى محيط الكائن لا من حيث إن هذا المحيط يؤثر فى السلوك ولكن من حيث هو موجود ، أما البيئة السلوكية فتشير إلى هذا المحيط من حيث تأثيره فى السلوك ، من حيث إنه مجموعة من القوى توجه السلوك هذه الوجهة أو تلك . والدلالة التى تظهر بها البيئة فى السلوك تتوقف من ناحية على بعض خصائص البيئة الجغرافية ومن ناحية أخرى على حالة الكائن الراهنة . فأنا عند ما أرى طعاماً قد أراه كهدف أسعى إليه ، هذا إذا كنت جوعاناً ، أما إذا كنت شبعاناً فإنى لا أراه كهدف ، بل ربما رأيته كشىء منفر يجب أن أبتعد عنه . فالبيئة السلوكية لا بد أن توصف دائماً بأنها سيكوفيزيقية ولا بد أن ندركها على أنها ذات « قيمة » لا على أنها موجودة فقط .[٢]

---

(١) "On The Structure of The Mind", K. Lewin, ("A Dynamic Theory Personality", K. Lewin, New York, 1935, McGraw-Hill).

(٢) "Principles of Gestalt Psychology", K. Koffka, New York, 1935, H. Brace.

أما الشخصية فليست آلة تحمل عدة مفاتيح كلما لمسنا مفتاحاً ظهرت نغمة معينة ، مفتاح الغريزة الجنسية ومفتاح غريزة القطيع ومفتاح غريزة القتال وهكذا ؛ الشخصية ليست آلة سلبية . قد أوجد فى موقف أسمع فيه كلمة فأندفع إلى القيام بنشاط هائل ، أكون مشغولا على أحد أصدقائى لأنى أعلم أنه مريض بدرجة يخشى على حياته منها ، وأقابل صديقاً آخر مصادفة فيقول لى لقد رأيت صديقنا المريض هذا الصباح وهو « اليوم متعب » ، فتدفعنى هذه العبارة فى هذا الموقف إلى إلغاء مواعيدى السابقة بل وربما الاعتذار عن عملى والذهاب فى الحال إلى حيث يرقد صديقى المريض للاطمئنان عليه . ولو أننى سمعت نفسى العبارة عن نفس الصديق ولكن فى موقف آخر ليست فيه هذه المشغولية السابقة ، فسأتلقاها بهدوء وربما لا أكلف نفسى مشقة السؤال عليه .

وهكذا لا نستطيع أن ننظر فى سيكولوجية الفعل بالاقتصار على مقومات البيئة الخارجية ، بل لا بد لنا من النظر فى حاجات الشخصية ومخاوفها وآمالها ، بعبارة أخرى لا بد لنا من النظر فى « توترات » tensions الشخصية . ومن هنا يبدو بوضوح كيف أنه لا يمكن الاقتصار على القول بأن الشخصية وحدة دينامية ، لأن هذا القول يوحى بأنها وحدة متجانسة بسيطة ، مع أن هذا غير صحيح ؛ فقد أجرى لفين بعض التجارب واستعان بتجارب تلامذته ومن أهمها مجموعة التجارب التى أجرتها تسيجارنيك Zeigarnik فى « الفرق بين تذكر الأعمال التامة والأعمال المبتورة »(١) وانتهى إلى أن الشخصية وحدة مركبة من عدة وحدات صغرى ، فهى جشطلت مركب من عدة جشطلتين Gestalten وهذه الوحدات الصغرى منتظمة فى نظام معين وليست متجمعة أياً مّا كان التجمع . ومن ثم فإن هذه الوحدات الصغرى لا تستطيع الاتصال ببعضها البعض بنفس السهولة دائماً وفى كل المواقف . إن لها حدودها التى تميزها بعضها عن بعض ولو أنها لا تعزلها ، وهذه الحدود قد تكون قوية وقد تكون ضعيفة وقد تثبت على قوتها فى بعض المواقف وقد لا تقوى على الثبات فى مواقف أخرى . وأبسط توضيح لهذا ما نلاحظه من أننا نحمل فى نفوسنا حاجات كثيرة ، ولكننا نؤجل بعضها لنشبع البعض ، فهل يضيعها هذا التأجيل ؟ كلا طبعاً ،

(١) "The Persistence of Motives as Revealed by The Recall of Completed and Uncompleted Activities", ("Recent Experiments in Psychology" ed. by L. Crafts & others; New York 1938; McGraw-Hill).

إنها تظل موجودة فينا ، وتظل حدودها قوية بارزة لتبقى تلك الحاجة متميزة . ويميز لڤين « جشطلتن » معيناً داخل الشخصية ، هو « الذات » حدوده أكثر صلابة وثباتاً ، وهو يميل إلى الاتزان أكثر من سائر الجشطلتن القائمة فى الشخصية . كما أنه يقوم فينا كالنواة عند المركز تحيط بها سائر الأبنية كأنها أغلفة بعضها فوق بعض ، ولذلك فإن مؤثرات البيئة لا تصل إليها بسهولة ، إنها فى كثير من الأحيان لا تمس إلا سطح النفس منا .

ويمضى لڤين يثرى آراءه هذه بالبحوث التجريبية الألمعية ، يعاونه فى ذلك تلامذة وزملاء نوابغ ، من أشهرهم دمبو Dembo ذات البحوث القيمة فى الانفعالات ، وكارشتن A. Karsten التى أجرت بحوثاً فى السأم أو الملل ، وج . ف . براون J. F. Brown الذى أجرى بحوثاً فى كيف أن البيئة تختلف درجات واقعيتها فى المواقف المختلفة .(١)

وتعتبر بحوث لڤين وتلامذته وزملائه مقدمة على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لبحوث علم النفس الاجتماعى . وقد حاول ج . ف . براون أن يقيم دعائم علم النفس الاجتماعى على أساسها مستلهماً الفرض الجشطلتى العام ، وذلك فى كتابه « علم النفس والنظام الاجتماعى » ، كما حاول كرش وكرتشفيلد Krech & Crutchfield نفس المحاولة فى كتابهما « علم النفس الاجتماعى ، نظرياته ومشاكله » ، ولكن المقام لا يسمح بتلخيص هاتين المحاولتين .

٤ — وقد تمكن لڤين على ضوء بحوثه وتجاربه فى الشخصية من أن يضع أسس نظرية تعتبر مساهمة لها أهميتها الكبرى فى ميدان علم النفس المرضى ، وهى نظريته فى « ضعاف العقول » . (٢) كما ساهم باحث جشطلتى آخر هو هنريخ شولته H. Schulte فى هذا الميدان أيضاً بنظريته فى « الذهان الهذائى » أو البرنويا .(٣)

وخلاصة هذه النظرية أن أعراض البرنويا يمكن أن تظهر لدى أى شخص يكون فى موقف يدفعه إلى محاولة الاندماج مع الآخرين لتكوين « نحن » دون أن

---

(١) "A Dynamic Theory of Personality", K. Lewin.

(٢) "A Dynamic Theory of The Feeble-Minded"; ("A Dynamic Theory of Personality"). K. Lewin

(٣) "An Approach to A Gestalt Theory of Paranoic Phenomena"; H. Schulte; ("A Source Book of Gestalt Theory").

يستطيع تحقيق هذه المحاولة ، فإذا استمر الموقف كما هو واستمر شعور الشخص بالحاجة إلى النحن فإنه تبدو عليه أعراض البرنويا . وقد استمد شولته هذه النظرية من فكرة عابرة وردت فى بحث لفرتهيمر بعنوان « النظرية الجشطلتية » نشر سنة ١٩٢٤ ، فاتخذ شولته هذه الفكرة بمثابة الفكرة الموجهة لمشاهداته على أسير حرب جريح وضع فى المستشفى العسكرى لدى الأعداء ، ولم يكن يعرف لغة هؤلاء الأعداء ، على أنهم لم يكونوا أعداء فى المستشفى بل كانوا يعاملونه كمريض فحسب . ومع ذلك فقد بدت عليه علامات سوء الظن بهم وتوقع الشر منهم بعد فترة من حلوله بينهم . فلماذا ؟ لأننا عند ما نكون مع آخرين فى مكان واحد لمدة طويلة ونتعرض لنفس التجارب سوياً ، نميل إلى أن تتكون بيننا وبينهم « علاقة ما » ، رابطة ما ، قد نكون معهم « نحن » إذا استطعنا ، فإذا لم نستطع فإننا نربط بيننا وبينهم بصورة أخرى ، « الآخرون ضدى أنا » ، أو « الآخرون من أجلى أنا » ، المهم أننا لا يمكن أن نظل وحدات منعزلة ، بل لا بد من اندماج أنواتنا فى بناء ، وظهور بناء متكامل أو بناء هذائى مسألة تحتمها ديناميات الموقف ككل .

هذه لمحة عابرة ، عن بعض البحوث الجشطلتية ، تستطيع أن تكشف بعض الشىء عن خصوبة هذا المنهج الجديد ، وعن نشاط هذه الفئة من العلماء التى دأبت على تنميته وتطويره . وكان شعارهم دائماً الفكرة الموجهة ثم التجربة الحاسمة . فالنظرية بلا تجربة جوفاء ، والتجربة بلا نظرية عمياء . ولا تقتصر هذه الخصوبة فى المنهج الجشطلتى على علم النفس ، بل لقد ظهرت آثاره فى ميدان البيولوجيا وذلك فى كتاب وودجر J. H. Woodger « المبادئ البيولوجية » ، وفى الفيزيقا تبدو بعض الإمكانيات القيمة على أساس الآراء التى نشرها كهلر[١] ، كما أن هذه الآراء تنطوى غالباً على إمكانيات طيبة بالنسبة للبحوث الفيزيولوجية ، وربما كان من أخصب الفروض هنا فرض الأيزومورفيزم Isomorphism

على أن أهم ما يؤخذ على الجشطلتية أنها لم تقدم لنا منهجاً واضحاً لمعالجة الجانب التكوينى من الظاهرة المدروسة . فمن المعلوم أن تاريخ الشخصية له أثر كبير فى كون حاضرها على ما هو عليه ، أو على أى حال له أثر لا يمكن إنكاره ، وإذا

(١) "Physical Gestalten", W. Kohler, ("A Source Book of Gestalt Psychology").

أمكن الإقلال من أهميته فى حالة الحيوان نظراً لتشابه تاريخ أفراد الفصيلة الواحدة إلى حد كبير ، فإنه لا يمكن الإقلال من أهميته فى حالة الإنسان بوجه خاص ، نظراً لتعقد المواقف الإنسانية وتعدد جوانبها وسرعة تقلبها ؛ وبحوث التحليل النفسى التى إحترمت هذا الجانب التاريخى وأولته معظم عنايتها تكشف عن مدى أهميته وخطورته . إلا أن علماء الجشطلت ، لم يقدموا لنا المفتاح المنهجى لمعالجته ؛ ولا يمكن إنكار قيمة اللمحات العابرة التى قدموها فى هذا الصدد مثل فكرة « الإطار الزمانى[١] »عند كوفكا وفكرة« موقف الحياة » عند لڤين[٢]،ولكن العبرة ليست باللمحات العابرة ، لا بد من مفتاح منهجى . لايكفى أن يُشعرنا الباحث بتنبهه إلى جميع جوانب الظاهرة ، بل يجب أن يبين الطريق إلى معالجة هذه الجوانب .

ويرى بعض الباحثين أن مستقبل علم النفس سوف يزدهر عند ما تلتقى الجشطلتية بالتحليل النفسى ،فالتحليل النفسى يهتم بالماضى أكثر مما يهتم بالحاضر . وعلى الضد من ذلك علم النفس الجشطلتى يهتم بالحاضر أكثر مما يهتم بالماضى . التحليل النفسى علم نفس تكوينى إلى حد كبير ، وعلم النفس الجشطلتى ذو نظرة شبكية إلى حد كبير ، ينظر فى تشابك الموقف الحاضر وتفاعله ؛ فى حين أن علم النفس لن يوفى موضوع الدراسة حقه إلا إذا اتخذ لنفسه منهجاً تكاملياً ، يلائم تكامل موضوع البحث.

مصطفى سويف

(١) "Principles of Gestalt Psychology", K. Koffka.

(٢) "Principles of Topological Psychology", K. Lewin, New York, 1936, Mc-Graw-Hill.

المراجع

1. Brown (J.F.) : "Psychology & The Social Order", 1938, New York, McGraw-Hill.
2. Crafts (L.) & others : "Recent Experiments in Psychology", 1938, New York, McGraw-Hill.
3. Ellis (W.) : "A Source Book of Gestalt Psychology", 1938, New York, K.P.
4. Flugel (J.C.) : "A Hundred Years of Psychology", 1935, Andover, Duckworth.
5. Koffka (K.) : "Principles of Gestalt Psychology", 1935, London, K.P.
6. Krech & Crutchfield : "Theory & Problems of Social Psychology", 1948, McGraw-Hill, New York.
7. Lewin, (K.), : "A Dynamic Theory of Personality", 1935, New York. McGraw-Hill.

موقف التحليل النفسى فى الوقت الحاضر*

بقلم

الدكتور فلوجل – Dr. J. C. Flugel

كنت أستطيع أن أختار عناوين أخرى مثل « التحليل النفسى بعد خمسين عاماً » أو « التحليل النفسى بعد مضى عشرة أعوام على وفاة مؤسسه » . فلقد ظهر كتاب فرويد Freud « تأويل الأحلام » فى بداية القرن تماماً ، وهو الكتاب الذى وضع التحليل النفسى على الخريطة وضعاً لا رجعة فيه باعتباره موضوعاً يلق أهتمام الجميع (أفلا نحلم كلنا ؟) ، وباعتباره متميزاً من الكتابات المتناثرة فى الطب العقلى ، التى ساهم فرويد حينئذ فيها بكتابه القديم « دراسات فى الهستيريا » الذى ألفه مع بروير Breuer . أما عن العنوان الثانى ، فمنذ عشرة أعوام تقريباً ، فى الشهر الأول من الحرب ، مات فرويد ، كلاجىء عظيم فى بريطانيا ؛ وبالنسبة لأية مدرسة أو حركة كالتحليل النفسى ، تدين ببزوغها إلى معلم واحد ذى شخصية بارزة ، لا بد وأن يكون العقد الأول الذى ينصرم عقب وفاته مرحلة حرجة شديدة الخطورة ، تتوثب فيها الميول الخفية التى تعمل على التشتيت والفساد ، تتوثب لتبرز سافرة بمجرد اختفاء أثر الرأس الأكبر والمؤسس . والواقع أنها مرحلة اختبار ، سوف تكشف عما إذا كان هذا المؤسس قد حالفه التوفيق لا لشىء إلا لصفاته الشخصية ، أم أنه نجح فعلا فى التأثير فى اتجاهات الناس وولائهم بحيث يستطيع عمله أن يتقدم وينمو – ولو أنه هو نفسه لم يعد موجوداً ليوجه أتباعه ويشجعهم ويؤلف بينهم . والتحليل النفسى ، من بين الحركات العلمية ، هو من خلق جل واحد إلى حد كبير جداً ، ومن ثم فإن الاختبار الذى نحن بصدده له أهمية رغير عادية .

(١) "Where Stands Psychoanalysis Today", by J.C. Flugel, ("The Rationalist Annual", London, 1951).

على أنه بالرغم من الدمار الذى أحدثته الحرب العالمية وما جاء فى أعقابها ، فإن التحليل النفسى ما يزال إلى اليوم مليئاً بالحيوية والعنفوان . ولا جدال فى أنه ككثير من جوانب حضارتنا القائمة ، اضطر أن يقوم بكثير من التنقلات الجغرافية و « اتجه غرباً » . ففى أوربا الوسطى ، حيث مسقط رأسه ، لا يعرفه إلا القليلون ، وبين أفراد الجيل الناشئ فى النمسا وألمانيا لم يكد يفيق من الضربة التى سددها إليه الهتلريون . ولكن على الشريط الغربى للقارة بما فى ذلك سويسرا ، وفى شمال أمريكا بدرجة أكبر ، نراه يزدهر بل ويستمتع بما يشبه « التضخم » ، ولا أدل على ذلك من كثرة الإشارة إلى المواقف التحليلية فى الكتابات الكوميدية الشائعة بين المثقفين وهذا الطوفان من الأفلام التى تتناول موضوع « العقد » وفقدان الذاكرة تناولا رواثياً (يتجه إلى التبسيط المخل عادة) . ولقد هاجر معظم الكتاب فى التحليل النفسى الذين ظهروا فى أوربا الوسطى ولا يزالون على قيد الحياة ، هاجروا إلى بريطانيا ، أو الولايات المتحدة ، أو بلاد أخرى أبعد من ذلك ، بينما حلت اللغة الإنجليزية محل الألمانية باعتبارها اللغة الرئيسية للتأليف فيه والاشتغال به . والمحللون النفسيون مرهقون بالعمل ، إذ أن الطلب فى كثير من المواطن يفوق العرض . ومن الناحية العلمية ، يمكن القول بأن الجمعية الملكية القائمة فى إنجلترا قد ختمت بخاتم التبجيل حركة التحليل النفسى بأن خلعت على فرويد نفسه ذلك الامتياز النادر امتياز العضوية للأجانب عقب وصول هذا العالم إلى هذه المملكة — وتلك حقيقة تدهشنا عند ما نقابل بينها وبين حملة النفى والتشهير والسخرية التى كان يلقاها التحليل النفسى من الدوائر العلمية والطبية عند بدء ظهوره . وكذلك نشهد نجاح التحليل النفسى فى الطريقة التى تسربت بها بعض مصطلحات التحليل النفسى إلى الحديث اليومى للمتعلمين ، نذكر من هذا القبيل « الكبت » و « التسامى » و « التبرير » و « الانطواء » وناهيك بما لقيته « عقدة النقص » (وهى اصطلاح شعبى أكثر منه اصطلاح فى الطب العقلى) . أما فيما يتعلق بالطب العقلى ، فإن من كان يتردد على اجتماع إحدى الهيئات الطبية السيكولوجية ، ثم انقطع لفترة غير يسيرة ، ليدهشه أن يرى المعانى الفرويدية العامة ، التى كانت تلقى المعارضة الشديدة والخلاف منذ عشرين سنة تقريباً ، أصبحت الآن مقبولة دون معارضة كعملة جارية تستخدم فى المناقشات . بل إن علم النفس الأكاديمى ، الذى كان بينه وبين التحليل النفسى أخدود عميق ، بدأ يتناوله باحترام . والواقع أن كل مرجع حديث أو سفر من

المحاضرات فى علم النفس يتضمن على الأقل إشارة إلى المعانى الفرويدية ؛ وفى الوقت نفسه يجد التحليل النفسى فى التقدير الشعبى (ولو أنه فى الغالب مهوّش ومشوّه . . .) اعترافاً فيه كثير من السخاء والحماس — حتى إن كفته لترجح لديهم كفة علم النفس كله باستثناء اختبارات الذكاء . والكثيرون ممن لم يسمعوا قط باسم ڤونت Wundt ولاثورندايك Thorndike لا يغيب عنهم اسم فرويد .

ولقد يبدو أن الأعضاء الذين لا زالوا على قيد الحياة من الجيل القديم من المحللين النفسيين يدهشهم هذا النجاح . ففى خطاب . . . ألقاه إرنست جونز E. Jones سنة ١٩٤٦ يلخص فيه أهم انطباعات العمر نجده يقول إنه دهش بوجه خاص باتجاهين للارتقاء لم يستطع أن يتنبأ بهما الرواد الأول . فأما الاتجاه الأول فهو التقبل الشعبى الذى لم نكد ننته من الإشارة إليه ، ولو أنه يذكرنا فى الوقت نفسه بأن هذا التقبل ليس من العمق بقدر ما هو من الاتساع . وأما الاتجاه الثانى . . . فهو يتمثل فى الخلافات والانشقاقات بين المحللين النفسيين أنفسهم . فمنذ سنة ١٩١٢ تقريباً وما بعدها ، عند ما ترك يونج Jung وأدلر Adler لأول مرة الجسم الأصلى الذى كان يضمهما ، ليكوّنا مدرستين خاصتين بهما ، منذ ذلك الحين وهذا النوع من الانشقاقات يحدث بكثرة لا سبيل إلى التغاضى عنها . وإذا غضضنا النظر عن أولئك الذين ثاروا لأسباب شخصية ضد المكانة غير العادية التى استمتع بها فرويد نفسه كمؤسس للحركة ومبتكر لمعظم اتجاهاتها الكبرى (وأدلر أعظم من يمثل هذا النوع من التمرد) فيبدو أنه كان لهذه الانشقاقات سببان رئيسيان . ويأتى فى المكان الأول نشاط عمليات المقاومة . . . ضد الاكتشافات المثيرة للتحليل النفسى (بهذه الصورة غير السارة للطبيعة البشرية التى تضمنتها تلك الاكتشافات) وهى نفس عمليات المقاومة التى ظهرت لدى العامة فى نطاق واسع (ولا يزال يونج بالتجائه فى النهاية إلى الغيبية المنمقة من النوع « الصاعد » هو المثل الأكبر فى هذه الفئة) . ويلى ذلك ، فى المكان الثانى ، تلك الرغبة التى لا غبار عليها ، وهى أجدر الرغبات بالاعتبار ، وأعنى بها الرغبة فى العثور على شكل آخر من أشكال العلاج للاضطرابات العصابية يفوق فى تأثيره وسرعته ما تقدمه الإجراءات الكلاسيكية للتحليل النفسى ، بما فيها من استبارات قد تبلغ المئات وتستغرق فى أدائها عدة سنوات ، فأما الذين انشقوا للسبب الأول . . . فقد جرت عادة كل منهم على أن يبدأ دوره الجديد بتأكيد وتنمية جانب خاص من اكتشافات التحليل

النفسى وكثيراً ما أضاف بعمله هذا إضافات هامة إلى معلوماتنا . ومن سوء الطالع ، أن مساهماتهم الإيجابية كانت تبدأ دائماً بتجاهل اكتشافات التحليل النفسى فى اتجاهات أخرى أو بمحاولة للتخفف من هذه الاكتشافات . وبذلك يعكس تاريخ التحليل النفسى تاريخ علم النفس كله بانقسامه إلى مدارس متحاربة ، وقد توصلت كل منها إلى اكتشاف بعض الحقائق القيّمة أو المناهج المفيدة ، ولكنها تميل إلى النظر إلى نفسها بشىء كثير من الصلف والادعاء كما لو كانت وحدها التى تملك مفتاح الحق والتقدم . إن كثيراً من التواضع يعوز علماء النفس بوجه عام ومن هم من المحللين النفسيين أو «المحللين النفسيين الجدد» أو الباحثين عن «طرق جديدة فى التحليل النفسى» لأن الحقائق والمناهج التى سبق اكتشافها كثيراً ما تظل تحتفظ بقيمتها وأهميتها حتى بعد أن تضاف إليها الحقائق والمناهج الجديدة . والعقل الإنسانى متعدد الجوانب يسمح بتناول الموضوع من عدة نواح ، فلا يمكن لأى مجهود فى أى جانب من هذه الجوانب أن يساهم بكل إمكانياته فى تحقيق الفهم الشامل . . . إلا إذا تعاون مع سائر الجهود ، والتواضع فى هذه الحالة يعنى أن المحللين النفسيين يجب أن يكونوا على حذر لئلا يغريهم البحث عن حقائق جديدة مقبولة بالتضحية بما يبدو فى التحليل النفسى الكلاسيكى غير مقبول لكنه صحيح ، كما أن ممثلى التيار الكلاسيكى يجب أن يحترسوا بدورهم لئلا تدفعهم محافظتهم إلى رفض اكتشافات قيمة توصل إليها الثائرون[1] .

وفيما يتعلق بأولئك الذين كان حافزهم الرئيسى هو الرغبة فى اختصار العملية المضنية للتحليل النفسى الكلاسيكى فحتم علينا أن نشاركهم عواطفهم . ولقد أدى ذيوع أمر التحليل النفسى جنباً إلى جنب مع الإصابات النفسية . . . من جراء الحربين العالميتين ، إلى إرغام الجميع على الانتباه إلى بروز أهمية المرض النفسى وإمكانيات الشفاء ، ولكن التحليل النفسى بصورته الكلاسيكية ، الباهظة التكاليف فى الوقت والمال ، ما كان ليستطيع أن يقدم العون إلا للقلة القليلة من المصابين . فلا أقل ولا أصوب من أن تتجه الجهود إلى الكشف عن إمكانيات العلاج الزهيد الذى لا يستغرق وقتاً طويلا . وتعتبر تجارب التحليل التخديرى[2] والتحليل

(١) «الأسس النظرية لتحليل النفسى» بقلم الدكتور صبرى جرجس – مجلة علم النفس – مجلد ١ عدد ١

(٢) «التحليل التخديرى» بقلم الدكتور أحمد المازنى – مجلة علم النفس – مجلد ٣ عدد ٢

التنويمى [١] والتحليل الجماعى والعلاج الجماعى بوجه عام من النتائج التى تستحق ما بذل فى سبيلها من جهود . ولا يزال الوقت مبكراً جداً لإصدار حكم نهائى على قيمتها . ومع ذلك فربما كان الشىء الذى سيلزمنا التعرف عليه ، هو أن أمراض النفس عسيرة العلاج بأى منهج وأن أنواع « الشفاء » الدرامائى العاجل (الذى يتحقق « بالتصريف » Abreaction ، أو باكتشاف الصدمات التى نسيها الفرد) هى الاستثناء وليست القاعدة . والظاهر أن عامل الزمن يؤدى دوراً جوهرياً فى تغيير النزعات الباثولوجية الكامنة فى الأعماق . وربما كان التحليل النفسى الكامل وحده هو الذى يمدنا بالمعرفة المفصلة التى لا بد منها لفهم الطبيعة المعقدة للمرض النفسى فهماً يلائم تعقيدها ؛ إلا أنه فى كثير من الحالات يمكن الحصول بطرق أقصر من ذلك على نتائج عملية قيمة ، كما يبدو من تخفيف معاناة المريض أو زيادة صلاحيته . ومع ذلك ، فإن التحليل النفسى ذاته هو الذى مكّننا بما أمدنا به من معارف من فهم تلك الطرق واستعمالها ، كما يدل على ذلك نفس استعمال لفظ « التحليل » فى الأسماء التى أتينا على ذكرها . والواقع أن التحليل النفسى ، أصبح إلى حد كبير جزءاً مكملا للطب العقلى وعلم النفس المعاصر ، ولا يمكن تقدير آثاره ، بمجرد النظر إلى نشاط المحللين النفسيين المحترفين بالمعنى الدقيق ، كما كانت الحال منذ ثلاثين عاماً ، فالعلم الجديد المعروف باسم الطب السيكوسوماتى [٢] مثلا ، الذى يستهدف الدراسة التفصيلية للعلاقات بين الأمراض الجسمية وما لها من أسباب ونتائج ومصاحبات نفسية ، متأثر تأثراً عميقاً فى جانبه السيكولوجى بأفكار التحليل النفسى ؛ بينما تقوم هذه الأفكار بمهمة لا تقل عن ذلك خطورة فى جانبه الخاص بالتطبيقات الاجتماعية وذلك فى المهمة الجديدة المنوطة بالباحث الاجتماعى الملحق بعيادات الطب العقلى ، وفى تلك المؤسسة الراسخة البنيان أعنى مركز رعاية الطفل ، وفى الخطوات الحديثة التى يخطونها نحو مشاكل الجناح ، وفى التربية وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا [٣] . كذلك كان للتحليل النفسى بلا جدال تأثير بالغ العمق فى

(١) « التحليل التنويمى » بقلم الدكتور صبرى جرجس – مجلة علم النفس – مجلد ٣ عدد ١

(٢) « فصول فى الطب السيكوسوماتى » بقلم الدكتور مصطفى زيور – مجلة علم النفس – مجلد ١ عدد ١ ومجلد ٣ عدد ١ ومجلد ٥ عدد ٣

(٣) « التحليل النفسى والدراسات الاجتماعية » بقلم مصطفى سويف – مجلة علم النفس – مجلد ٤ عدد ١

الفن والأدب[١] (والواقع أن الأدباء كانوا أكثر ترحيباً بالآراء التحليلية من زملائهم العلماء) ، بينما حدث نفس الشيء بالنسبة للاتجاهات نحو المشاكل الجنسية فقد تغيرت هذه الاتجاهات كما أصبحت المناقشات فى هذا المجال حرة إلى حد كبير (ولو أننا لا نستطيع أن نغفل فى هذا الصدد أثر العلماء الآخرين ، من أمثال هيرشفيلد Hirschfeld وهافلوك إليس H. Ellis ، وكذلك أثر الأحداث العالمية الأخرى) ، وعلى ذلك فمن الإجابات التى يمكن الرد بها على سؤال « أين يقف التحليل النفسى فى الوقت الحاضر ؟ » أنه فى بعض البلاد الغربية استطاع إلى حد كبير أن يتسرب فى صميم دولاب الحياة الاجتماعية .

ولا جدال فى صدق ملحوظة إرنست جونز ، بأن هذا الربح الكبير فى الاتساع قد تحقق على حساب العمق أو الكيف إلى حد ما ، وكلما ازداد الابتعاد عن المصدر الأصلى « للتحليل النفسى » الخالص ازدادت درجة التهافت والضحالة . على أن النقاوة والعمق العلمى ، على الأقل فى النظرية ، مضمون باستمرار بقاء المحللين النفسيين المتصفين بالحزم والدقة ، مرتبطين معاً بطريقة تضمن حفظ نشاطهم بمعزل عن آثار التشويه العامى . ومع أن « الجمعية الدولية للتحليل النفسى » بفروعها القومية أو المحلية المنتشرة فى كثير من البلدان ، قد عانت كما تعانى معظم الهيئات الدولية الأخرى من الخلافات والمصاعب المتعددة الأنواع والأسباب ، فإنها تستطيع أن تفخر بتاريخ متصل إلى حد ما يمتد منذ تأسيسها فى سنة ١٩١٠ ، وبمؤتمراتها التى تنعقد كل سنتين . . . . وكان آخرها المؤتمر المنعقد فى زيورخ فى صيف سنة ١٩٤٩ وقد شهده جمهور كبير . وتحتوى أحدث قوائم العضوية المنشورة سنة ١٩٤٨ على أسماء حوالى ٩٠٠ عضو فى الجمعية ، يقيم نصفهم أو أكثر فى الولايات المتحدة الأمريكية [٢] . وتوجد فى تلك البلاد إحدى عشر جمعية مترابطة فيما بينها ، بينما توجد جمعيات أخرى فى الأرجنتين والنمسا وبلجيكا وبريطانيا وفرنسا وهولندة والهند وإيطاليا وفلسطين والسويد وسويسرا ، كما أن هناك بوادر جديدة تم قبولها مؤقتاً ، وذلك فى أستراليا والبرازيل وشيلى وألمانيا .

وقد بدأ التحليل النفسى كفرع من الطب ، ولكنه فى ارتقاءاته الكبرى

(١) « التحليل النفسى والفنان » بقلم مصطفى سويف — مجلة علم النفس — مجلد ٢ عدد ٢

(٢) « بعض جوانب التحليل النفسى فى الولايات المتحدة الأمريكية » — مجلة علم النفس — مجلد ٦ عدد ١

سرعان ما عبر حدود الأصل الذى نشأ فى ظله . وأكثر من ذلك ، أنه للاشتغال العملى به كمنهج علاجى وسيكولوجى لم تعد الدراية الطبية لازمة ولا كافية (باستثناء ضرورة الإلمام ببعض أوليات الطب العقلى) ، ويجب ألا ننسى تلك الميزة التى ينفرد بها التحليل النفسى وهى إمكان القيام بالعلاج والبحث معاً . وقد تكون بعض الاتجاهات التى يكتسبها الشخص أثناء دراسته الطبية المعتادة (كالاتجاهات المقرونة بالمران استعداداً لأعمال أخرى مثل التعليم أو الاشتغال بالقانون) بمثابة عائق أكثر منها معين فى الاشتغال بالتحليل النفسى . . . حيث يكون ظهور أية بادرة تدل على « التعالى » أو التسلط بمثابة ضربة قاضية على العملية كلها ، ولكن من ناحية أخرى نجد الأمراض النفسية تأتى بمضاعفات جسدية دائماً ، وقد تصحبها وتتفاعل معها أمراض لها بعض الأصول الجسدية أو أصولها جسدية أولا وآخراً ؛ وللكشف عن هذه الأمراض وعلاجها لا بد وأن نرى فى المعرفة الطبية ضرورة لا غنى عنها . فلايدهشنا إذاً أن تكون مشكلة « التحليل العادى » (بمعنى التحليل الذى يقوم به غير الأطباء) قد أثارت منذ زمن بعيد ولا تزال تثير بين المحللين النفسيين نقاشاً حاداً . ولاريب أن فرويد نفسه كان محبذاً لفكرة التحليل العادى ، إلا أن ممارسة التحليل النفسى لأغراض علاجية بوساطة أعضاء تعترف بهم جمعيات التحليل النفسى المختلفة ظل امتيازاً طبياً ، ولذلك تنشأ فى بعض الأمم مشاكل قانونية خطيرة حول الاعتراف الرسمى بالمحللين غير الأطباء . والأغلبية العظمى من الأعضاء التسعمائة السابق ذكرهم . . . ذوو مؤهلات طبية ، ولا يوجد فى الولايات المتحدة إلا استثناءات نادرة لهذه القاعدة . أما جمعية التحليل النفسى البريطانية ، ومعهد التحليل النفسى الذى يشرف على سياسة التحليل والاشتغال به فى هذه البلاد ، فلهما فى هذا الصدد اتجاه أكثر تحرراً ، ولو أنه يهتم بأن يضم أغلبية من الأعضاء الأطباء ، كما أنه يقيد انتخاب المرشحين من غير الأطباء أكثر مما يقيد المرشحين الأطباء ، وخصوصاً إذا كان العضو غير الطبى يزمع ممارسة التحليل . وربما كان من نتائج هذه العملية الانتخابية ، أن ساهم الأعضاء غير الطبيين بنصيب يفوق نسبتهم العددية ، فى زيادة معلومات التحليل النفسى ، لا سيما فى مجالات علم نفس الطفل والتطبيقات الاجتماعية . أما من حيث التدريب ، فنحن إذا قابلنا بينه وبين عملية الانتخاب لم نجد أى فرق بين تدريب الأطباء وتدريب المحللين العاديين . وهو (فى إنجلترا على الأقل) شاق مضن ، يستغرق فى العادة ما بين ثلاثة أعوام وأربعة

وينقسم إلى ثلاثة أقسام : التعليم النظرى ، والتحليل الشخصى ، وتحليل بعض المرضى تحت إشراف وتوجيه (أى بالاستعانة بمناقشة الجلسات التحليلية مع « محلل مشرف » تعينه الهيئة . . .) وتحقيقاً « للانتباه الشخصى » المطلوب لممارسة التحليل الشخصى والإشراف ، يتطلب التدريب على التحليل النفسى مطالب باهظة فيما يتعلق بأوقات المعنيين بالتدريب ، إذ يبلغ مجموع ساعات الدراسة المخصصة لكل مرشح حوالى ألف ساعة . لذلك لا يمكن أن يزداد عدد المحللين النفسيين زيادة سريعة لمواجهة الطلب المتزايد . وإذا نظرنا إلى نفقات التحليل الشخصى ، فسرعان ما نفهم أن التدريب يقتضى المرشح تضحيات غالية — فى المال والوقت والمجهود — خاصة وأنها تأتى ، كما هى العادة ، بعد مرحلة طويلة من الدراسة الطبية أو الأكاديمية ، ومع ذلك فإن معهد التحليل النفسى يستغل موارده المحدودة بأقصى درجة ممكنة لا ليتعهد جميع المرشحين الذين يحاولون الفوز بهذا التدريب بل أكثرهم صلاحية فحسب . وتلك حقيقة أخرى قد تعيننا على الإجابة عن سؤالنا ، « أين يقف التحليل النفسى فى الوقت الحاضر ؟ »

وأخيراً ، سنحاول أن نجيب على هذا السؤال من وجهة النظر العلمية . وتلك مهمة غير يسيرة . ولقد كان التحليل النفسى ينطوى دائماً على بعض المآزق الخاصة من ناحية المنهج العلمى ، ولما كانت إجراءاته الأساسية قد بقيت زمناً غير يسير دون تغير . فلا يدهشنا أن تظل هذه العقبة قائمة . إن التحليل النفسى ضعيف من الناحية العلمية ، كما أوضح النقاد ، سواء من حيث كونه لا يتيح القيام بأية خطوة تكون لها مهمة التحكم التجريبى الصارم ، ومن حيث كونه يبدو عاجزاً حتى عن أن يمدنا بالبيانات الإحصائية اللازمة (وهى ما يلجأ إليه الباحثون . . . فى كثير من فروع علم النفس الأخرى ، عند ما لا يتوفر التجريب المضبوط بما فيه الكفاية) . وقد درجت بعض العيادات التحليلية على أن تنشر الإحصاءات بين الحين والحين ، إلا أنه من المعترف به لدى المختصين أن التقريرات الكمية الجريئة التى ظهرت تحت عناوين « شفى » « تحسن كثيراً » و « تحسن » و « لم يتغير » الخ لا تفصح عن شىء ذى بال ، لا سيما وأنه لم تكد تبذل المحاولات لإقامة معايير تفصيلية ومقارنة «للتحسن» Comparative الخ كما يفهمها العاملون فى مختلف الدراسات والمجالات . ولم يصل إلى علمى كذلك نبأ قيام أية محاولة منظمة للمقارنة الإحصائية بين نتائج التحليل النفسى ونتائج سائر أشكال العلاج النفسى . ولاتزال الحجة الرئيسية للتحليل

النفسى للاستحواذ على الفكر العلمى حجة برجماسية فى حقيقتها — بمعنى أنه استطاع أن يبرز وما يزال يبرز حقائق كلينيكية جديدة وتصورات نظرية جديدة برهنت على أنها مفيدة تنير السبيل إذا ما طبقت على الطبيعة البشرية بوجه عام ، بل والطبيعة البشرية فى أشد إفصاحاتها تنوعاً — من الأطوار الغريبة للعصاب لدى الأفراد إلى المآسى الاجتماعية الكبرى المتمثلة فى القلاقل السياسية والحرب العالمية .

ومع ذلك فلا يزال هناك الكثير من الأمور غير المقنعة من وجهة نظر التحليل النفسى . وقد أوضحت من قبل كيف فشل أصحاب التحليل النفسى إلى حد كبير فى أن يواجهوا المنشقين بما يتلاءم والروح العلمى . أولئك المنشقين الذين أكدوا وتموا موضوعات كانت فى بداية أمرها جوانب جزئية فى النظريات أو الآراء التحليلية . وإليك هذين المثالين نذكرهما بالذات على سبيل الإيضاح . فمشكلة الرمزية « الوظيفية » فى مقابل الرمزية « المادية » (أعنى الرمزية المرتبطة بحالات أو عمليات نفسية فى مقابل الامتثال الرمزى للأعمال أو الأشخاص أو الأشياء القائمة فى العالم الخارجى) ، التى احتلت مكان الصدارة منذ أربعين عاماً تقريباً بفضل جهود سيلبرر Silberer ويونج ، ما تزال اليوم بعيدة عن الحل كما كانت يوم ظهرت لأول مرة ، وكذلك ظهر مقال إرنست جونز فى « نظرية الرمزية » سنة ١٩١٨ ولا يزال هو الكلمة الأخيرة فى الموضوع لعدة اعتبارات . وأغلب الظن أن الفرويديين وأتباع يونج سوف يتفقون من الناحية النظرية على أن كلا الشكلين من الرمزية قائم وأنهما متصلان فيما بينهما عن طريق عملية « التحكم الزائد » overdetermination ولكننا عند ما نقرأ التقارير والتأويلات التحليلية التى يضعها أتباع المدرستين ، نجد اختلافات هائلة حتى لا يبدو حلها أمراً شاقاً . ونظرية يونج فى اللاشعور الجمعى ورأيه فى « النماذج الرئيسية » قد يصعب بل يتعذر إثباتهما أو دحضهما ، إلا أننا ربما جاز لنا أن نرجو بحق أن نكون الآن قد حصلنا على فكرة واضحة عن الأهمية النسبية لهذه الأنواع المنوعة من الرموز وكثرة ظهورها وكيفيات تفاعلها لدى المرضى الذين تجرى عليهم التحليلات الفرويدية واليونجية .

وكذلك ، انقضى أكثر من ربع قرن منذ انفصل رانك Rank (وكان من خصوبة أكثر المحللين النفسيين غير الأطباء . . .) عن رعيل التحليل النفسى مختلفاً وإياهم على موضوع « صدمة الميلاد » ، وانقضى ما يقرب من ثلاثين عاماً منذ اقترح كاتب هذه السطور ، فى كتاب لا يمكن القول بأنه لم يجد أى قارئ ، اقترح اتجاهاً

معيناً فى البحث كان من شأنه أن يلقى بعض الضوء على هذا الموضوع الغامض الشّيق ذى الأهمية التى لا يمكن إغفالها. ولكن انقضت هذه الفترة ولم يوجد من يحقق شيئاً من هذه الإشارة (ويعترف كاتب هذه السطور عن طيب خاطر بأنه يستحق بعض اللوم مع غيره) . وفى الأيام الأخيرة أثيرت المسألة من جديد على يد ناندور فودور N. Fodor فى صورة تنطق بضرورة الربط بين أنواع معينة من المخاوف والتهاويم من ناحية ، وبين الوقائع الخاصة بعملية تكون الجنين والميلاد من ناحية أخرى . والظاهر أن المحللين النفسيين قد غالوا (أو أساءوا الفهم) فى رأى فرويد القائل بأن المناقشات غير مجدية ، وأن خير ما يرد به الباحث على النقاد أن ينتج أبحاثاً جديدة ؛ إلا أن هذه الأبحاث الجديدة ليس من الضرورى أن تتجنب مقترحات النقاد حول المشكلة ، ما دامت هذه المقترحات توجهنا بعض التوجيهات العلمية . على أن الصعوبة الحقيقية هى فى أن كثيراً من هذه المشكلات (كمشكلة صدمة الميلاد مثلا . . .) تتطلب بوضوح أبحاثاً مستفيضة ، تقتضى فترة قد تستغرق عدة سنوات ما بين بداية البحث والانتهاء منه ، بينما نجد مشكلات أخرى تحتم مجهوداً جماعياً واغترافاً من معارف وموارد عدد كبير من الباحثين . إن توسيع أفق البحث ، وزيادة التعاون بين المحللين النفسيين أنفسهم وبينهم وبين زملائهم العاملين فى الميادين المجاورة ، هو وحده على الأرجح الطريق الذى ييسر زيادة التقدم نحو حل بعض المشاكل المتشابكة التى أثارها التحليل النفسى ذاته .

ومن البشائر الطيبة ، أن آفاق هذه المسائل الأخيرة قد أشرقت فى السنوات القليلة الماضية ، وخاصة فيما يتعلق بالصلة بين المحللين النفسيين وعلماء النفس التجريبيين . وأجريت عدة تجارب ، يمتاز بعضها بالجرأة والألمعية ، الغرض منها اختبار الفروض العاملة فى التحليل النفسى ، أو على الأقل تناول المسائل التى أثارتها النظريات التحليلية . وتناولت الدراسات أنواع العصاب — المصنوع — التى ترجع إلى صدمات سواء فى الحيوان وفى الإنسان ؛ وآثار أنواع معينة من الحرمان أو مواقف خاصة أخرى واجهت المرء فى طفولته وتحددت علاقتها بسلوك الشخص فى مراحل العمر التالية ؛ واستخدمت طرق التنويم الصناعى لتوضيح بعض مشاكل « التحويل » transference وفهم الرموز ؛ ووضعت الاستخبارات وطبق الجهاز الإحصائى الضخم جهاز « التحليل العاملى » لاختبار(١)

(١) "Factor Analysis Explained", by H.B. English; The Egyptian J. of Psychology, vol. III, No. 3.

مدى تماسك بعض سمات الشخصية كما اقترحها المحللون النفسيون ولتحديد علاقاتها بخبرات الشباب التى أبرز المحللون النفسيون أهميتها فى بعض الحالات . ولقد قامت التصورات التحليلية بدور كبير فى تأويل « اختبارات الإسقاط » - رورشاخ -[١] واختبارات « تفهم الموضوع »[٢] ؛ بينما وضعت اختبارات أخرى جديدة وابتكرت مواقف تجريبية بقصد دراسة الظروف التى من شأنها إذا أحاطت بالمرء أن تحمله على العدوان ، وكيف يتم ذلك بحيث ينطلق إلى الخارج لمعاقبة الغير ، أو إلى الداخل لمعاقبة الذات — وتلك مشكلة أثارها التحليل النفسى باكتشافه للعدوان (أو لدوافع أخرى) « إذ يتجه ضد الذات » . إلا أن هذه الدراسة ما تزال مهوّشة (كما هى الحال فى معظم البحوث السيكولوجية التى تتناول الانفعال والشخصية) ، ولا تزال نتائجها التى تمس آراء التحليل النفسى مثاراً لنقاش حاد . ولكن أقل ما فى الأمر أننا نكون محقين إذا قلنا إن النتائج الرئيسية حتى الآن لا تتنافر مع النتائج التى سبق للمحللين النفسيين أن وصلوا إليها ، بل إنها لتبدو فى بعض الحالات تأييداً جديداً لا شك فى قيمته . وإذ يزداد عدد علماء النفس الأكاديميين من ذوى الاهتمام بالتحليل النفسى ، وممن يروضون أنفسهم على مقتضياته ، وإذ يزداد عدد المحللين النفسيين ممن يلجأون بدورهم إلى المناهج « الموضوعية » حيثما وجدوا السبيل إليها ، فثمة أمل فى تعاون أوفق ونشاط أفضل فى المستقبل القريب . ومعنى ذلك أنه فى هذا المجال أيضاً مجال الوقفة العلمية ، استطاع التحليل النفسى أن يقف على قدميه . وبينما نجد التقدم فى بعض الاتجاهات لم يتحقق بالسرعة التى كنا نرجوها ، وبينما نجد هذه الحقيقة بدورها راجعة — إلى حد ما — إلى العزلة النسبية للتحليل النفسى حتى الماضى القريب (وهى ظاهرة تعكس بطريقة مبالغ فيها بعض الشىء ، وضع المدارس السيكولوجية بوجه عام) ، فإن التحليل النفسى برغم ذلك قد بدأ يتفاعل تفاعلا مثمراً مع تلك الفروع من الدراسات الإنسانية التى تمتاز بالحرص والتأنى وتقصر نفسها على المناهج « الدقيقة » . وقد تضحى فى سبيل ذلك ببعض جوانب النفس البشرية رغم أهميتها وشدة جاذبيتها فتتركها دون أن تقترب منها . وتوجد عدة دلائل تدل على أن التحليل النفسى يقف اليوم على عتبة

---

(١) « اختبار رورشاخ » بقلم الدكتور إسحق رمزى — مجلة علم النفس — مجلد ٢ عدد ٢

(٢) « اختبار تفهم الموضوع » — بقلم الدكتور إسحق رمزى — مجلة علم النفس مجلد ٢ عدد ٣

مرحلة يتم فيها التداخل والتفاعل بين عبقرية فرويد الثاقبة . . . وبين دقة فونت Wnudt وصبره ومثابرته ومن ورائه أولئك الذين حذوا حذوه من أتباع هذه المدرسة أو تلك — وهو تحالف ينبىء بالشيء الكثير فى سبيل فهم الإنسان لمشاكله التى تفرضها عليه طبيعته الغريبة المعقدة .

ترجمة

مصطفى سويف

فقدان الشعور المصحوب بسلوك اندفاعى لا إرادى[1]
نتيجة صدمة نفسية

بقلم

عبد المنعم الملجى

الأخصائى النفسى بمكتب الخدمة لمحكمة الأحداث

مدرس علم النفس بجامعة إبريم

يستطيع الإنسان الناضج من الناحية الانفعالية والعقلية أن يقاوم ما يتنازعه فى ظروف الحياة العادية من رغبات عدوانية ، ويتحكم فيها . ولكن نفس الشخص إن أصيب بتوتر نفسى نتيجة موقف من مواقف الحياة المثيرة أو عدة مواقف متلاحقة ، ضعفت قدرته على مقاومة الرغبات العدوانية . وقد لا تؤدى حالة التوتر إلى انبثاق مثل هذه الرغبات ولكنها تجعل الشخص عرضة لذلك إن أصيب بأية صدمة نفسية طارئة . فمن شأن التوتر أن يبدد من الطاقة النفسية التى يستخدمها المرء فى التصرف فى ظروف الحياة الواقعية وفى مقاومة رغباته الغريزية اللاشعورية ، فإذا كان المرء واقعاً تحت وطأة هذا التوتر النفسى ثم فوجىء بصدمة نفسية بسبب حادث مفاجىء انهارت قوته على المقاومة واندفع فى تصرفاته على نحو أعمى لا ضابط له ولا هدف وأصبح سلوكه سلوكاً اندفاعياً آليا صرفاً .

فالتوتر النفسى فى ذاته (أى حالة الصراع النفسى بين رغبات متعارضة) قد لا يسبب المرض أو الجنون أو الاضطراب السلوكى إلا إذا تعرض الشخص لصدمة نفسية تنهار أمامها آخر معاقل المقاومة الشعورية : ولكن يجب أن نذكر أن الصدمة وحدها لا تكفى لإحداث هذه الأعراض السالفة ومن بينها الاضطراب السلوكى ، بل لا بد أن يكون الشخص ذا صفات نفسية قديمة نشأت خلال التربية الخاصة وحوادث الحياة السابقة ، أو أن يكون – كما أسلفنا –

(١) صورة تقرير رفع فى إحدى القضايا المعروضة على المحكمة العسكرية العليا .

عانى فترة من الزمن حالة من الصراع والتوتر النفسى الشديد . فالعوامل التى تهيئ الشخص للانهيار أمام الصدمة النفسية المفاجئة ، إما عوامل قديمة رسخت فى النفس أو عوامل مكتسبة حديثاً : كأن يكون الشخص احتمل عبئاً طويلا ، أو آلاماً متعددة ، أو كبتاً زائداً لانفعالاته . وتزيد قابليته للانهيار إن كان ذا حساسية زائدة ومثالية أخلاقية أو تزمت وجمود ، فمن شأن هذه الصفات أن تمعن فى الكبت ، ومن ثم أن تزيد حدة التوتر النفسى .

ومن نتائج الصدمة فضلا عن انهيار مقاومة الذات الشعورية للرغبات المكبوتة الانفصال عن الواقع انفصالا يظهر فى أحد الأشكال الآتية :

١ — أمنيزيا هستيرية : أى فقدان مؤقت للذاكرة ؛ فينسى الشخص كل ما يتعلق بماضيه ، وقد ينسى اسمه واسم عائلته ويصبح ذهنه خالياً من أمور كثيرة تتعلق بماضيه المؤلم .

٢ — شلل هيستيرى : إذ يتعطل عضو أو أكثر عن أداء وظيفته .

٣ — بعض حالات الجنون التى ينسبها العامة ، خطأ ، إلى حادث مؤلم ؛ ولكن الحادث إن هو إلا سبب مباشر أو صدمة نفسية مفاجئة أبرزت الكامن من العوامل النفسية المحتبسة .

٤ — بعض الجرائم : فقد يرتكب الشخص نتيجة الصدمة المفاجئة جريمة على نحو اندفاعى ، ودون سبق إصرار ، سواء كان ذلك الشخص كبيراً أو صغيراً ، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك جريمة القتل التى حللها الأستاذ Broadwin, I.T. فى بحثه المنشور فى مجلد Psychoanalysis To Day تحت عنوان (جرائم الأحداث) . وقد ارتكبها طفل ، إذ أطلق الرصاص فجأة على رجل اعترض سبيله ، وقد اعتبرت الجريمة نتيجة صدمة نفسية مفاجئة أصابت شخصاً ظل مدة طويلة واقعاً تحت وطأة التوتر النفسى . والمجلد مطبوع فى نيويورك سنة ١٩٤٤ فى International University Press

ويقول العالمان لانديس وبولز فى كتابهما

Landis & Bolles : Abnormal Psychology New-York 1949.

صفحة ٢٩ ما يلى عن الصدمة النفسية :

« بعض الناس الذين يتعرضون فترة طويلة من الزمن لقنابل العدو ، أو للغارات الجوية ، والزوجات اللاتى يفاجأن بخبر خيانة الأزواج ، والأطفال الذين

يُعاملون معاملة صارمة من آباء متزمتين ، كثير من هؤلاء يكونون عرضة لنوبات انفعالية تتملكهم على نحو فجائى بسبب المواقف التى تكتنفهم . على أن معظم هؤلاء الأشخاص يبرأون من الأعراض الحادة التى انتابتهم بمجرد انشالهم من الموقف الخاص ، ويصبحون بمنجى من التصرف تحت ضغط الموقف . ومن المعلوم أيضاً أن القابلية للتوتر النفسى هى فى حالات كثيرة ترجع إلى استعدادات سابقة . فقد ينهار شخص لصدمة نفسية فى حين لا ينهار شخص آخر أمام صدمة مكافئة لها » .

وفى صفحة ٩٤ :

« فى أية نوبة هستيرية ، قد يسقط المصاب ويمر بسلسلة من التقلصات والتشنجات ، ولكن ذلك يتم دون أن يجرح نفسه فى السقوط (فيسقط بخفة أو على شىء ناعم) . هذا ، ولا تحدث هذه النوبات إلا فى حالة وجود أناس آخرين audience .

وهنالك أعراض هستيرية أخرى تأخذ شكل فقدان الذاكرة (أمنيزيا) ومختلف حالات الغيبوبة Trance ، وما يحدث فى هذه الحالات هو تعطل الشعور العادى loss or inhibition of consciousness ، فيسلك الشخص على نحو أوتوماتيكى . وقد يتملك الشخص فى هذه الحالة فكرة ، أو مجموعة من الأفكار تستبعد كل ما عداها من أفكار .

وعند ما يفيق من هذه الحالة ، لا يستطيع أن يذكر شيئاً مما وقع أثناءها من حوادث . وإذا اقترنت هذه النزعة إلى السلوك مسلكاً أوتوماتيكياً برغبة لاشعورية (كأن يهرب أو يعتدى أو ينتقم إلخ . . . .) فإن هذه الرغبة هى التى تسيره أثناء الحالة . مثال ذلك : إن كانت به رغبة لاشعورية للهرب فإنه قد يبتعد عن منزله أميالا عدة دون تذكر لاسمه أو للمكان الذى قدم منه . على أن فترات فقدان الذاكرة هى فى العادة فترات قصيرة يعود بعدها المصاب إلى حالته العادية .

ولا نستطيع فى هذا المقام أن نحلل بعض الأمثلة الواقعية بل نكتفى بالإشارة إلى بحوث Morton Prince التى تعتبر سجلا حافلا بالأمثلة والحالات الواقعية ، وكلها تبين أن أية صدمة نفسية مفاجئة قد تؤدى ببعض الأشخاص العاديين إلى تغير مفاجىء فى السلوك الوقتى ، أو فى الشخصية بأسرها بشرط أن يكونوا من قبل فى حالة من الصراع النفسى الذى يُضعف قدرة الشخص على مجابهة مواقف

الحياة والتوافق مع الواقع ، وفى نفس الوقت تضعف مقاومة الذات الشعورية لآثار الصدمة النفسية أو للدوافع اللاشعورية المكبوتة .

والتغيير الطارئ على السلوك قد يستغرق فترة قصيرة من الزمن وقد يدوم وقتاً يطول إلى شهور عدة ، وأحياناً يحدث تقلب دورى بين حالتين من حالات النفس ، كما يحدث فى حالات ازدواج الشخصية duality of personality ؛ وما حالة ازدواج الشخصية سوى صورة عنيفة للتغير المؤقت الذى يحدث فى حالة الاندفاع فى نوبة تهيج « مانيا » أو « هستيريا » أو « إغماء » إلخ . . . ويكون الشخص بعد الحالة عاجزاً عن تذكر ما مر به فى أثناء النوبة ، وأحياناً قد يشعر بها كما لو كانت حلماً منسياً ، أى أن المرء أثناء النوبة قد يفقد الشعور ، وتجرى أعماله واستجاباته فى مستوى لاشعورى .

ومما يؤيد ذلك ما ورد فى المرجع التالى

M. Prince, "Clinical and experimental Studies in Personality". Cambridge, 1929.

« دراسات إكلينيكية وتجريبية فى الشخصية تأليف مورتون برنس »

* * *

ويجب أن نراعى أن عنف الصدمة النفسية لا يقاس بمظهرها الاجتماعى الخارجى ، بل بمدى تهيؤ نفس المصدوم لتقبلها . فعنفها يكون قياساً إلى الشخص نفسه . فرب اشارة تافهة تكون بمثابة صدمة نفسية عنيفة تهز كيان الشخص إن كان يعانى توتراً نفسياً فترة طويلة ، أو كان قد احتمل إجهاداً عقلياً مستمراً كما يحدث لبعض العلماء إذ ينسون أنفسهم فى غمار العمل ، أو ظل نهباً للخوف والتهديد المستمر بالموت أو الفضيحة ، أو ظل صابراً مدة طويلة على مظالم أو خيانات من شخص محبوب ، أو احتمل آلاماً فى أعقاب جرح أو عملية جراحية ، أو بذل جهداً مستمراً فى كبت الحقد والرغبة الجارفة فى الانتقام . . . . فى كل هذه الحالات يكون الشخص عرضة للانهيار الدائم فى حالة من الجنون ، أو المرض ، أو الشلل الهستيرى ، أو التغير المفاجىء فى السلوك ، حتى إذا ما وقع حادث مثير للانفعالات ، أيّا كانت تفاهته فى نظر الشخص السليم ، فلا يكون الحادث هو المسئول وحده عن حالة الانقلاب هذه بل بمثابة الضغط على الزناد ، الذى يطلق البارود الذى كان معباً من قبل ، كذلك تكون الصدمة النفسية ظرفاً كفيلا بإطلاق الشحنة الانفعالية المكبوتة ؛ وذلك وحده يفسر لنا عدم

التناسب (الذى يبدو للمشاهد المحايد الذى ينظر نظرة سطحية) بين عنف الاستجابة وتفاهة المثير . ويقرر Stout فى كتابه

Manual of Psychology, 3rd edition, p. 706.

« أنه عند ما ينشأ فى الفرد دافعان يرى كل منهما إلى غاية مناقضة للأخرى ولم يكن الشعور بالنفس موجوداً ، فإن أحد الدافعين يسيطر على الآخر على نحو يكاد يكون آلياً » .

ومن الأعراض المرضية النفسية الشائعة : « التهيج الهـذيانى» delirious excitement و «تغيم الشعور » clouding of consciousness ، الأمر الذى ينشأ عادة فجأة وهو يتفاوت شدة من فرد إلى آخر ، وهو عادة مندمج فى اضطرابات نفسية أخرى مثل المانيا ، والانقباض والقلق ، والخلط confusion والنفور المفاجئ من الأقارب ، والهلوسة ، واضطرابات الكلام . وقد يعقب هـذه الحالة إحدى الأمور الآتية : —

١ — برء سريع ٢ — حالة مانيا ثم برء تدريجى ٣ — حالة انقباض ثم برء فجائى ، أو حالة انقباض طويلة ٤ — جنون الفُصام (شيزوفرينيا) .

عبد المنعم المليجى

باب المجلات والدوريات

تأويل جديد لمسرحية هاملت(١)

بقلم

جيمس مولوني و لورنس روكلاين

إذا قلنا إن هملت هي أعظم مسرحيات شكسبير وإنها إحدى الروائع الخالدة في جميع العصور فإننا بذلك نقرر أمراً لا جدال فيه . ولقد احتلت هاملت مكانتها هذه كإنتاج لعبقرى ، وكأنموذج رائع للصياغة الدرامائية والمسرح العظيم ولم تنزل عنها منذ اعتلت المسرح الإليزبيثى حوالى سنة ١٦٠٣ .

وإنما يرجع بعض هذا النجاح — ولا يمكن الإقلال من شأن هذا البعض — إلى الثقل الوجدانى للمأساة نفسها ، هذا الثقل الذى يصدر عن مشكلتها الجوهرية ، ألا وهى تردد هاملت الذى يقسم على الثأر لمقتل أبيه ، فإذا أتيحت له الفرصة عجز عن ذلك . ولقد كان من آثار هذا السلوك الذى لا مبرر له من العقل والمنطق ، والذى لم يفسره المؤلف فى مسرحيته بلفظ ولا بفعل ، كان من آثاره أن أثار اهتمام أساتذة الأدب منذ بداية القرن الثامن عشر على أقل تقدير . وانبرى المؤرخون والنقاد يقلبون النظر فى اللغز مرة وأخرى ، ويقدمون لتفسيره النظريات ثم يدحضونها ويتجادلون حولها فى شروح لا آخر لها . ومهما قيل فى فروضهم التى قدموها من أنها ملهمة خصبة إلا أنها على كل حال عجزت عن تفسير تردد هاملت وإرجاعه إلى أسبابه الحقيقية .

حتى إذا ظهرت أساليب التحليل النفسى ، عولجت المشكلة من جديد فى حدود السلوك الإنسانى والدوافع اللاشعورية للشخصية العصابية . وكان فرويد ، بإشاراته العابرة إلى الأمير الدانمركى ومناقشاته لعقدة أوديب ، هو أول من أشار إلى الاتجاه الذى نستطيع أن نجد فيه المفتاح التحليلى لهاملت .

(١) "A New Interpretation of Hamlet", by J.C. Moloney & L. Rockelein; (The International J. of Psychoanalysis; vol. XXX part II, 1949.

فقد قال يصف هذه الظاهرة السيكولوجية ذات الجذور العميقة ، « يبدأ الابن وهو لا يزال بعد طفلا صغيراً ، يتعهد فى نفسه نوعاً من الشغف بأمه ، التى يعتبرها بعض ممتلكاته ، ويرى فى أبيه منافساً ينازعه هذه الملكية . . . وتدلنا المشاهدة على مدى قدم هذه العواطف ، أعنى تلك التى نصفها بعبارة « عقدة أوديب » ، لأننا نجد فى أسطورة أوديب أن الطرفين البعيدين للرغبات التى يمليها الموقف — الرغبة فى قتل الأب والزواج من الأم — يتحققان بصورة معدّلة تعديلا طفيفاً »(١) .

وفى حديثه فى العقدة الأوديبية وكيف تتهدد نضج الفرد ، يقول ، « ومنذ بدء المراهقة فصاعداً يجب على المرء أن يكرس نفسه للمهمة الكبرى مهمة التحرر من الوالدين ؛ ولن يستطيع إنهاء طفولته إلا إذا تحقق له هذا الاستقلال وأمكنه بالتالى أن يصبح عضواً فى المجتمع . . . على أن العصابيين لا يستقلون عن آبائهم أبداً ؛ فالابن يظل طوال حياته خاضعاً لأبيه ، عاجزاً عن تحويل طاقته الشهوية إلى موضوع جنسى جديد » .

وفى إشارته إلى هاملت يقول ، « وسوف نرى أن كلا من هؤلاء العصابيين كان هو نفسه شخصية أوديبية ، أو . . . كان هاملت فى استجابته لتعقيده » . ويتكلم عن هاملت مرة أخرى باعتباره « منغمساً فى نفس التربة التى أنبتت الملك أوديب » . (٢)

وبمتابعة علماء التحليل النفسى لهذه الإشارات الخصبة استطاعوا أن يقوموا بدراسات متعمقة لهاملت ، كان من نتائجها أن ساهموا بكثير من الأفكار الخصبة فى زيادة تعميق الموضوع ودفعه إلى الأمام . ومن المؤلفات التحليلية الكبرى فى هذا الصدد البحث الذى نشره إرنست جونز E. jones بعنوان « مشكلة هاملت وعقدة أوديب » ، وهو حجة فى الموضوع ومن أوفى ما كتب عنه .

ويبدأ الدكتور جونز بحثه برأى له أهميته إذ يقول إن هاملت « يعانى من كف للقدرة على إرادة . . . الثأر لموت أبيه . وإن النتيجة القائلة بأن هاملت لم يكن يريد فى قرارة نفسه أن ينفذ ما اعتزمه ، إن هذه النتيجة لتبدو من الوضوح بحيث يتعذر علينا أن نتصور قارئاً متفتح الذهن يستطيع أن يتجنب استنتاجها » . ثم

(1) "A General Introduction to Psychoanalysis", by S. Freud, 1943.
(2) "The Interpretation of Dreams", by S. Freud.

ينتهى من ذلك إلى ملاحظة أن فكرة الثأر كانت قد وجدت تبريرها أمام هاملت إذ بررها له ضميره conscience، أما الموانع التى كانت تقف ضدها فكانت مكبوتة ومجهولة بالنسبة له .

ويعمد الدكتور جونز إلى تأويل هذا الكبت فى حدود عقدة أوديب ، فيحلل كآبة هاملت وخواطره الانتحارية التى تطرأ على ذهنه فى مطلع المسرحية (حتى قبل أن يعلم بقتل أبيه) باعتبارها أعراض ذاكرة ناعسة بدأت تستيقظ . وهنا يتقدم إلى « . . . بؤرة الموقف . فكيف إذا صح أن هاملت فى سنواته الغابرة، أيام أن كان طفلا ، كان ينفر من أن يشاركه أبوه حبه لأمه ، ويرى فى هذا الأب منافساً ، ويود . . . لو تخلص منه ليستمتع باحتكار هذا الحب دون منازع ؟ . . . إن تحقيق رغباته المبكرة فى موت أبيه على يدى غريم غيور كان من شأنها أن تنتج محصولا ثانياً غامضاً لصرعات الطفولة يظهر فى شكل هبوط وعدوان ، أو ذنب ونزعة صادية » .

ويشرح رأيه فيقول ، « إن التعبير الكامل عن الرغبة المكبوتة لا يقف عند حدود أن الأب يجب أن يموت ، بل يتعداه إلى أن الابن وقد اتخذ لنفسه الدور الجنسى للأب ، يجب أن يتزوج من أمه . فالابن الذى يرث فى معظم الأحوال تكوين شخصيته عن أبيه ، هو مجرد صورة مكبوتة للأب . فإذا أفسح الأب الطريق ، فإن التقمص المكبوت سرعان ما يعود وإذا بالابن يحاول أن يفوق الأب فى ممارسته للأبوة . وإن هاملت ليحمل فى نفسه جميع العناصر التى تجعل منه مجرماً كبيراً يقف على قدم المساواة مع كلاوديوس » .

ولقد سار الدكتور جونز وراء فرويد فى تأويله القديم لمشاعر هاملت وحبه المتوهج باعتباره مجرد طفل متعلق بأمه ، مشيراً إلى أن هاملت ولو أنه فطم نفسه إلى حد ما من هذه الأم وأحب أوفيليا ، إلا أنه ظل يطوى فى نفسه خواطر شهوية نحو الملكة .

إلا أن موت أبيه وزواج أمه الجديد جعل « ارتباط فكرة الجنسية بأمه ، تلك الفكرة التى دفنت منذ الطفولة ، لم تعد تستطيع الاختفاء بعيداً عن شعوره » . إن الدافع نحو امتلاك الأم قد عاد فاستيقظ بموت الأب . ومع ذلك فإنه كلاوديوس ، أحد الأقرباء ، هو الذى حقق رغبات هاملت المكبوتة فى (ا) امتلاك الأم عن طريق (ب) إبعاد الأب .

ولإثبات هذا التيقظ للخواطر المتضاربة المتصارعة ، يشير الدكتور جونز إلى رد الفعل العنيف الذى صدر من هاملت نحو أوفيليا باعتباره يعبر تعبيراً واقعياً عن المرارة التى يحسها هاملت نحو أمه ، كما أنه دليل على الكبت الهائل الذى ترزح تحت وطأته مشاعره الجنسية .

والخلاصة ، أن الدكتور جونز ينتهى إلى أن كراهية هاملت لكلاوديوس إن هى إلا غيرة آثم من منافس تفوق عليه . ذلك أن الدافع المكبوت لدى هاملت نحو قتل الأب يقرب بينه وبين كلاوديوس الذى قتل ذلك الأب فعلا ، ومن ثم فإن هاملت لا يستطيع أن يقتل كلاوديوس دون أن يقتل نفسه . ويشير الدكتور جونز إلى سبب آخر لعجز هاملت عن الفعل ، وهو الكبت الشديد لفكرة قتل « زوج أمه » ، سواء أكان الزوج الأول أم الثانى .

ومن وجهة نظر التحليل النفسى لا خلاف على كثير من تأويلات الدكتور جونز . فمن الجلىّ كما يقرر أن هاملت لم يرد أن يثأر لقتل أبيه ، وأن ذلك كان لأسباب لا شعورية . كذلك كان هاملت شخصية أوديبية ؛ فإن مشاعره وخواطره الانتحارية ، وانفجاراته الغضبية ، واستجابته لزواج أمه الثانى ، وتظاهره بالجنون وسلوكه نحو الشخصيات الأخرى فى المسرحية كلها توضح هذا المعنى وتؤكده . ومن ثم فإن خواطره الطفولية الجنسية المرتبطة بأمه يمكن أن تثار لموت أبيه وتنعكس فى اتجاهاته بعد ذلك نحو أوفيليا .

إلا أن المقدمة الكبرى ، القائلة بأن رغبة هاملت المكبوتة فى قتل أبيه تقرب بينه وبين كلاوديوس حتى لتشلّه عن الفعل ، لا تستقيم وخبرتنا بالتحليل النفسى . إذ أن الشعور بالذنب كان من شأنه أن يدفعه إلى قتل كلاوديوس بدلا من أن يشله عن الفعل ، وذلك جرياً وراء « الإنقاذ » . وثمة ثلاثة أسباب سيكولوجية أخرى تؤيد ما نذهب إليه .

فأولا ، كان يلزمه أن يرغب لا شعورياً فى أن يبين كيف كان يمكنه أن ينقذ الملك لو أنه وجد ساعة الجريمة . لأن الاتجاه النفسى للانتقام هو منع الجريمة فى الماضى . فالمنتقم يسرق من اللص ليعيد الممتلكات المسروقة . ويقتل القاتل ليعيد حياة القتيل . فهو يلغى الجريمة وكأنه يقول ، « انظروا لتروا ما عساى كنت فاعله لو أننى استطعت أن أقف فى وجه المعتدى فى الوقت المناسب » .

وثانياً ، كان يلزم هاملت أن يقتل كلاوديوس لينكر أمام نفسه رغبته

اللاشعورية فى قتل الملك ، ليمحو من ذهنه تلك الجريمة التى اقترفها فى الخيال ؛ وثالثاً ليظهر باعتباره المعتدى عليه ، وليثبت براءته أمام العالم .

والواقع أننا لكى نحل لغز هاملت يلزمنا أن نكشف عما كان عساه أن يحدث له لو أنه قتل كلاوديوس ، بدلا من أن نقتصر على سؤال « لماذا أحجم هاملت عن قتل كلاوديوس » . عندئذ يتضح لنا أن صورة الأب ، سواء أكان الملك أم كلاوديوس ، كانت تحمى هاملت من خطر النمو والكبر . إن إزاحة هذه الصورة معناها أن يصبح هاملت ملكاً . . . وهو منصب يتطلب نضجاً وإحساساً بالمسئولية وبالأبوة نحو رعاياه . ومعنى هذا الموت لهاملت الشاب الذى لا يحس بالمسئولية . من الخطورة على هاملت أن ينضج ، وأن يغتصب العرش من مغتصبه ، بل أن يفكر فى تأكيد ذاته أمام أب متسلط . ولهذا الخوف أسباب أخرى عديدة ، فقد يثور الأب على الابن المتمرد ويقتله ، وحتى إذا نضج الابن وانتصر فإنه معرض بعد ذلك لتبعات التاج ، وللمؤامرات التى تحاك حول صاحبه .

وثمة حقيقة أخرى لها نفس الأهمية السيكولوجية ، وهى أن هاملت « إذا أصبح ملكاً فسيمتلك الملكة » . ومع أن فكرة امتلاك الأم كانت مكبوتة بشدة فى لاشعور هاملت ، فهناك أكثر من دليل فى المسرحية على أن هذه الفكرة لم تقمع لأسباب أخلاقية كما هو القول الشائع ، بل لأن علاقة هاملت الطفلية بأمه وبصيرته النافذة فيها كانت تثير فى نفسه الخوف كما تثير الرغبة . وكما أن فكرة النمو كانت تعنى الموت بالنسبة لهاملت ، كذلك كانت فكرة امتلاك الأم .

فما أراد هملت مسئولية البلوغ ، وما أراد التفوق على أبيه ولا الحصول على أمه . وما دام الأب باقياً فى مكانه ، فإن هاملت فى أمان من التهديد الجنسى من أمه ؛ كما أنه فى أمان من تهديد أبيه لحياته . . . وهو حر طليق يلعب دور الأمير الغاضب المتحفز للثأر ، والمستريح فى الوقت نفسه للحوائل التى تحول بينه وبين تنفيذ هذا الثأر . إن أى عدوان يقترفه إزاء كلاوديوس يعنى الانهيار لذلك الأمن الطفلى الذى نسجه حول نفسه ، أو بعبارة أخرى إنه يعنى الانتحار السيكولوجى .

ولقد تضخمت مخاوف هاملت ، زيادة على ضخامتها الأصلية ، تضخمت بفعل بعض التجارب التى صادفته . ومن بين هذه التجارب القاسية مقتل الملك ، وكان هذا رمزاً يعنى فى نظر هاملت أن الحصول على العرش والملكة يعنى الموت . ثم هناك عامل آخر ، وهو أن فقدان الأب الذى يحميه كان يثير فيه الرعب وآلام

الفراق . ولقد كان زواج أمه السريع بمثابة البلسم الذى أمده ببديل للأب وبذلك مكّن هاملت من أن يستمر فى القيام بدور الطفل . على أن طمأنينته قصيرة العمر ، فبعد شهر تقريباً تلقى التوجيه الخاص من الشبح بأن يقتل كلاوديوس . ومرة أخرى نجده يدفع دفعاً إلى القضاء على صورة الأب ، وهو ما لم يكن يرحب به هاملت ولكنه تلقى أمراً بأن ينجز هذه المهمة بنفسه . فكانت هذه المهمة بمثابة رعب إضافى يزيد من خنوعه أمام الجالس على العرش .

فإذا قرأنا المسرحية على ضوء الملاحظات السابقة ، فإنها تكشف لنا بوضوح مدهش عن الخصال الأساسية لهاملت وأسباب تردده . فالأبيات والفصول والمشاهد منذ البداية حتى القمة كلها تكشف عن خضوعه وموقفه السلبى ، وخوفه من الثمو ، ورعبه من الملكة ، وبالتالى يتضح لنا أكثر وأكثر عجزه عن قتل كلاوديوس . وعلى ضوء تلك الملاحظات تلتقى اللمحات المتنافرة ، وتتضح الأبيات المبهمة وتنتظم المأساة كلها نحو بؤرة لم نحصل عليها من قبل أبداً . والشىء المهم حقاً سواء من وجهة النظر السيكولوجية والأدبية ، أن هذا التأويل لهاملت تعرضه المسرحية نفسها وتفسره وتؤيده .

ومما هو جدير بالذكر أن الناقد الأدبى الكبير برادلى A.C.Bradley يقول ، « إن الطريقة الوحيدة ، إذا كان ثمة طريقة ، لإثبات صحة أى تفسير لشخصية هاملت ، إنما تكون بأن نبين أنه هو وحده ، الذى يفسر كل الوقائع التى يقدمها نص الدراما » . ويقول كذلك ، « وقبل أن نتأكد مما يحدث مشهداً بعد مشهد يلزمنا أولا أن نكون على يقين من أننا نسبر معنى ما تقول الشخصيات فى كل مشهد ، أو على الأقل ما تقوله فى اللحظات ذات الدلالة الدرامائية . ووجود بعض التنوءات الشاذة . . . عن التيار الرئيسى لا يهمنا كثيراً . لكن الذى يهمنا هو أن نتابع حركة ذهن هاملت عند ما يكلم الشبح ، وهوراشيو ومارسيلس فى مشهد برج المراقبة ، أو عند ما يكلم روزنكراتس وجلدنشترن فى المشهد الثانى من الفصل الثانى ، أوحين يتحدث إلى أوفيليا فى مشهد الدير ، لأن تفسيرنا الكامل للمسرحية يتوقف على تأويلنا لكلماته . ثم إننا قبل أن نستطيع التأكد مما قاله هاملت أو أية شخصية أخرى ، يلزمنا أن نكون على يقين مما كتبه شكسبير ، بل وما أراد أن يكتبه » .(١)

(١) "Shakespearean Tragedy" y A.C. Bradley.

أبيات هاملت

إن عدم النضج الذى يكشف عن نفسه فى أبيات هاملت بطريقة لا شعورية يبدو بشكل واضح منذ البداية . ويبدو ذلك فى بعض أحاديثه فى المشهد الثانى من الفصل الأول إذ ترتكز هذه الأحاديث أولا وآخراً على طفليته وإشفاقه على نفسه وخوفه من النمو . فكلماته الأولى ، « أكثر قليلا من قريب وأقل من أن أكون نفس النوع » اعتراف بأنه ليس من نسيج كلاوديوس الشهوى المقدام وهى موجهة إلى النظارة فى صورة ملاحظة جانبية تهيب بهم أن يتفهموا مركزه الحرج . ثم قوله « إننى غارق فى الشمس » تشير إلى خوفه من النمو . لأن الدخول فى الشمس ، أى فى النور يقتضى كما أشرنا إلى ذلك من قبل شعوراً بالقيادة وسلوكاً بالغا رشيداً . وهو يبدو لنا فى صورة من يقبل حقائق الموت بشكل غير ناضج. وفى الفصل الثالث نجده يريد العودة إلى المدرسة ليصبح تلميذاً مرة أخرى مع أن عمره قارب الثلاثين .

وتدل المسرحية منذ مطلعها على أن أباه قد مات منذ شهرين وأمه تزوجت منذ شهر . ومعنى ذلك أن العرش قد ظل خالياً لمدة شهر ، ولكنه يبين لنا أنه لم يبذل أى جهد ليحل محل أبيه . ويقول فى ذلك « . . . إننى لا أشبهه . . . . إلا كما أشبه هرقل » وهكذا يباعد بين شخصيته وبين الأب باعتباره الابن العاجز الضعيف . وهو يريد أمه ويخافها ، ولقد رفضته أمه مفضّلة عليه ذلك المنافس الناضج كلاوديوس ، فهو يشكو خيانتها ، « أيتها الخيانة ، إن اسمك امرأة ! » ، وهو يسقط رغباته المحرمة فى شكل اتهامات لأمه فى « فراشها المحرّم » ، ثم ينتهى كأنه طفل ، « ولكن فلتنفطر يا قلب ، فإن علىّ أن أمسك بزمام لسانى » لئلا يفلت أمام صورة الأب فيتهدد وضعه الراهن .

كذلك أبياته التى ألقاها وهو على منصة المراقبة ينتظر قدوم الشبح تستمر فى نفس الاتجاه . والوجه الظاهر من هذه الأبيات أنه يشير إلى كلاوديوس . ولكن الواقع أنه ينسج فى الخارج حيلة من شأنها أن تحمى مركز شخصيته ، الأنا . إنه يقذف فى الخارج — بالرفض والإنكار — أحاسيسه اللاشعورية بالنقص ، وذلك بأن يعزوها إلى كلاوديوس . وقد كان لورنس أوليفييه L.Olivier منتبهاً إلى انطباق هذه الأبيات على هاملت ولذلك استخدمها كتقديم للمسرحية فى عرضها السينمائى .

ولقد ألقى هاملت بهذه الأبيات قبل أن يعلم بقتل أبيه ، وتلك مسألة بالغة الأهمية ، وإدراكها جوهرى لكى نستطيع أن نفسر فى هاملت جانبين يثيران الحيرة باجتماعهما معاً .

فأما الجانب الأول فهو مسألة عمر هاملت . فإن عمر الثلاثين كما يقرر حفار القبور لا يتفق وأفعال هاملت . إن أفعاله ليست أفعال رجل فى الثلاثين من عمره . هى أفعال غير ناضجة لأن صاحبها لم يبلغ النضج النفسى . فألوان صراعاته التى يناضلها ترجع إلى المرحلة التناسلية من مراحل ارتقائه النفسى الجنسى .

وأما الجانب الثانى ، فيتمثل فى هذا الفشل الواضح فى أن يحرر نفسه من سيطرة أحد الوالدين مما يمكننا من أن نتفهم السبب فى تردده عند ما يواجه ذلك التكرار المأسائى للمشكلة ، إن شكسبير الكاتب المسرحى الصناع يشيد شخصية هاملت قبل أن يتعهد المشكلة الدرامائية . ويكشف التحليل عن أن هذه الشخصية « شخصية خاضعة سلبية » . ومن ثم فإن البدء بالتحذير السيكولوجى معناه التسليح بالفهم والبصيرة . فلا يدهشنا إذن أن نكتشف أن هاملت يعبر منذ البداية بأفعاله وكلماته عن حاجته إلى الابتعاد ما أمكن عن قتل كلاوديوس والبقاء كطفل يستظل بحمايته ، وعن مخاوفه من النجاح الذى من شأنه أن يجلب الرشد والامتلاك الرمزى للملكة.

وهو يسقط على الظروف الخارجية أعمق الأسباب التى تعجزه عن العدوان والثأر . وتلك محاولة عصابية لإخفاء الحقائق النفسية فى الموقف . وفى محاولته الفلسفية للتعميم ، فى الفصل الثانى ، يقول إن أعظم ما ينتظره من خير كإنسان لا يعدو أن يكون « النوم والغذاء » ، وهما أهم ضروب النشاط الفيزيولوجى التى يقوم بها الطفل .

وفى مشهد المقابر يقول مخاطباً لايرتس ، « سوف أصيح كما تصيح أنت » وبذلك يتراجع إلى التراشق بالكلمات بدلا من اللكمات . ولكن الأمر ينتهى به إلى مواجهة معركة حقيقية لأول مرة فى المسرحية . فيقول « سوف أغلبه ، فذلك فى قدرتى ؛ فإذا عجزت ، فسوف لا ألقى غير الخزى والضربات الطائشة » ، وتلك عبارة لا يقولها رجل ناضج واثق من حقوقه ومن قدرته .

مشاهد فى هاملت

وكما أن البحث على ضوء التحليل النفسى فى أبيات هاملت يبرز لنا صورة لفظية يرسمها لنفسه أمير ملىء رعباً وعجزاً ، فكذلك تحليل المشاهد خلال الدراما

كلها يبرز لنا عدم نضجه ومخاوفه من الملكة الأم ، يبرزها فى أعين الآخرين وفى أبياتهم ، وفى سلوك هاملت نفسه .

فى المشهد الثالث من الفصل الأول ، يتكلم لايرتس مخاطباً أوفيليا عن هاملت وحبه ، بأنه

« . . . زائل ، حلو ، لا يدوم
إنه شذا لحظة وهواها . »

وهو يحذّر أوفيليا من الوقوع فى حبه أو التورط فى الارتباط به ، مبرراً تحذيره هذا على أساس أن الواجب الأكبر أمام هاملت هو واجبه نحو العرش . ثم على أساس أن هاملت ليس هو الشخص الذى يمكن الاعتماد عليه .

وإذ ينصرف لايرتس ، يواصل بولونيوس نغمة التحذير قائلا إن عناية هاملت بأوفيليا أصبحت مدار همس الجميع وإن الكثيرين قد حذروه مغبة ما قد تتورط فيه ابنته . ويقول لها ما معناه إن الأمير قد يجد فى مكانته من الحرية ما يتيح له التهرب من عهوده أمام الفتاة . ثم يقول لها « لا تصدقى أيمانه . . . » . ولا يجمل بنا أن ننظر إلى هذه النصائح كنصائح عامة صادرة إلى الفتاة لترعى حدوداً معينة فى تعاملها مع الرجال عامة بل إنها نصائح تلائم علاقتها بهاملت الذى يتوسم فيه كل من الأب والأخ فقداناً للشعور بالمسئولية .

وفى حديث الشبح إلى هاملت نستطيع أن نستشف أمراً له أهميته الكبرى . فالأمير يشعر شعوراً غامضاً بأن أمه قد شاركت فى جريمة قتل أبيه ولم تقتصر على مجرد الزواج من القاتل ، وتلك الفكرة تزيد مخاوفه من الأم . والدليل على أن تلك الخواطر قد جالت بذهن هاملت قول الشبح له :

« . . . . ولا تدع نفسك تفترى
على أملك شيئاً : دعها وشأنها . . . . »

المهم أن الأم ازدادت تخويفاً للابن . ومن ثم فقد ازداد خوفه من النساء جميعاً بما فيهن أوفيليا . وإذاً فمن الخير له أن يرفض المرأة قبل أن ترفضه هى . والأفضل ألا يمتلك الغير بدلا من أن يمتلكه الغير ؛ والأفضل أن يصبح قاتلا بدلا من أن ينتظر حتى يختنق . ومن هنا كانت خطته فى التظاهر بالجنون عبارة عن رفض حاسم لأوفيليا بوجه خاص وإن كانت موجهة بوجه عام ضد الجميع .

إن هذه الاستجابة من هاملت ليست مجرد استجابة صحيحة من الناحية

السيكولوجية العامة ، ولكنها هنا نتيجة متضخمة لموقف خاص بين هاملت وأوفيليا . لأن المادة الواردة فى المسرحية ، إذا أحسنا تأويلها من حيث الزمن والتتابع الدرامائى تكشف لنا بوضوح عن أن هاملت كان بالفعل خائفاً من أوفيليا وكان يحاول الفرار منها . وكل مافعلته أنباء الشبح بما تضمنته من تلميحات مخيفة إلى الأم أنها حفزته وبررت له قطع علاقته بفتاته نهائياً .

والأبيات الواردة فى المشهد الخامس من الفصل الرابع الواردة على لسان أوفيليا عند ما تصاب بالجنون توضح أسباب ذلك بجلاء . ولقد قيل إن أوفيليا كانت تهذى فى هذه الأبيات بكلمات لا معنى لها . ولكن التحليل النفسى لا يعرف أى هذيان لا معنى له . فهذه الكلمات ذات دلالة لا ينبغى إغفالها . فأوفيليا تشير إلى أن هاملت كان قد وعدها بالزواج منها . ولقد أقسم لها على ذلك فى خطاب قرأه بولونيوس فى المشهد الثانى من الفصل الثانى ، قال :

« لتكن ريبتك فى أن النجوم نيران ؛
ولتكن ريبتك فى أن الشمس تتحرك دائماً ؛
ولتكن ريبتك فى الحق بأنه قد يكون كذباً ؛
ولكن لا يمتدن بك الريب إلى حبى . »

وتقول أوفيليا إنها واصلت التقدم نحوه ، وبذلك أصبحت الأنثى هى التى تتابع الرجل بل تطارده . ومعنى هذا أن هاملت لم يعد المسيطر تماماً على علاقته بها ، ومعنى هذا أنه فقد اطمئنانه إلى هذه العلاقة ، وبالتالى فقد أصابه الذعر من إقدام أوفيليا ، فإذا به ينكث عهده فى الزواج منها .

والمسرحية مليئة بالشواهد على صحة هذه الاستنتاجات . ففى المشهد الأول من الفصل الثالث يرفض ما تذكره به قائلا ، « إننى لم أعطك قط شيئاً » ، وهذا إنكار رمزى لوعده إياها بالزواج ، ولالتقائه معها التقاء جنسياً . ثم يقول لها ، « دخلى ديراً » ، وبذلك يدفع الأنثى المرفوضة إلى مؤسسة غير جنسية حيث لا يستطيع أى رجل ،حتى ولا هو نفسه ، أن يرقد معها . ويستطرد قائلا ، « فإذا أنت تزوجت ، فإنى أحل عليك هذه اللعنة . . . ليكن عفافك بارداً كالجليد ، وطهارتك فى بياض الثلج ، فإنك لن تفلتى من العار » ، وهذا القول منه عبارة عن نوع من الغضب الدفاعى يستتر فى صورة تحقير أخلاقى لهذا الدفء والحب الذى كان يفيض من إقدامها . ذلك الإقدام الذى ارتضى لنفسه أن يستمتع به فى وقت من الأوقات .

ثم يقول ، « أما إذا رغبت فى الزواج ، فتزوجى من مأفون أحمق ؛ لأن العقلاء من الرجال يعرفون حق المعرفة أى وحوش تصنعن منهن » . وتلك إشارة إلى ما يعرفه عن كلاوديوس من أنه قتل الملك ليفوز بامرأة شهوية ، كما أنها قرار مقنع بأنه لا يريد أن يشارك فى نفس المصير . ويختتم الحديث بقول انفجارى ، « أقول إننا لن نتزوج بعد الآن » .

وفى المشهد الثانى من الفصل الثالث نجد سلوك كلاوديوس أثناء عرض « المسرحية داخل المسرحية » يثبت جريمته كما توقع هاملت . ومع ذلك فإنه بدلا من مهاجمته مباشرة بعد أن حصل على هذه البينة التى كان ينشدها ، يظل فى الردهة بعد خروج الملك . وبدلا من وضع خطة لمطاردة كلاوديوس نجده يشغل نفسه بيضع تأملات فى نجاح حيلته الصغيرة ، كطفل يستمتع بفكرة تعذيب أحد والديه ، رغم معرفته اللاشعورية بأنه سيتلقى على ذلك عقاباً لا مفر منه .

إننا لن نفهم موقف هاملت إذا لم نحن نفهم هذه الحقيقة الهامة : وهى أنه كلما تجمعت الأسباب لدى هاملت لقتل كلاوديوس ازداد انشغاله بالحصول على الملكة . وفعلا هذا هو ما يحدث فى المشهد . إنه يفكر فى أمه ، وتدور برأسه خواطر عدوانية ضدها . وعند ما تحل نهاية المشهد يكون موقفه قد تبلور فى التفكير فى قتلها بدلا من قتل كلاوديوس .

وفى المشهد الثالث يمر بكلاوديوس وهو يصلى ، ولكنه يكون مشغولا بزيارته لأمه . ويترك الفرصة لقتل صورة الأب ، ومرة أخرى نقرر أن السبب فى هذا خوفه من أن موت الملك سيتركه وجهاً لوجه أمام الملكة . ويلقى بكلمات يبرر بهذا تراجعه عن قتله ، يختتمها بقوله « وستبقى أمى » ، ثم يمضى إلى الملكة .

وعند ما يبلغ باب حجرتها ينادى كما لو كان طفلا ، « أماه ، أماه ، أماه » وإذ يدخل الحجرة يندفع فى عرض عصابى لحبه وخوفه ، ثم إذا به يقول ، « ولكنك . . . أمى » . ولقد تنبه لورنس أوليفيه فى إخراجه السينمائى للمسرحية لهذه الاتجاهات الجنسية اللاشعورية نحو أمه . وبدا ذلك واضحاً فى إخراجه وفى التوجيهات الكتابية فيما يتعلق بالإخراج . فبعد دخول هاملت الحجرة يتقدم مباشرة ، « . . . . ويمسك الملكة ويدفعها فى اتجاه الفراش » . ثم « يطرح الملكة على الفراش » ويمسك بيده اليسرى خنجراً يلوح به فى وجه الملكة الفزعة » . وإذ يصيح بولونيوس من وراء الستار ، « يتحرك هاملت مسرعاً . . . وينهال بخنجره وقد أمسكه الآن

بيده اليمنى » . إن هاملت يتجه لاشعورياً إلى إمساك خنجره بيسراه وهو فى مواجهة الملكة ليترك يمناه حرة الحركة تستطيع أن تتحسس جسد الملكة وثيابها .

وبعد مقتل بولونيوس يظل يتحدث إلى الملكة عن زواجها، وهو ما يشغل باله ، وبعد ثمانية وخمسين بيتاً يبدأ يذكر كلاوديوس « القاتل الأثيم » . وهذا مثال آخر لارتباط هاملت بطفليته الجنسية . وإذ يشير إلى كلاوديوس يظهر شبح القتيل مرة أخرى أمامه ليذكره بأن مهمته الكبرى هى أن يقتل ذلك الرجل لا أن يدع « نفسه تذنب» فى حق أمه وذلك تحذير سبق للشبح أن ألقاه إليه ، والجدير بالذكر أن الشبح هنا مجرد وهم من نسج خيال هاملت نتيجة لشعوره بالإثم إذ يحاول الاعتداء الجنسى على أمه . ذلك أن الأم لم تره ، فى حين أنه عند ما ظهر فى المرة السابقة رآه من كان مع الأمير . كذلك يجدر بنا أن نلاحظ ملحوظة أخرى على جانب كبير من الأهمية . فالأمير الذى سبق له أن واجه الشبح بشجاعة ينتابه الرعب فى هذه المرة ، إنه الطفل المذنب وقد ضبطه أبوه فى فراش أمه . ويذكره الشبح بمهمته ، ثم يتركه وينصرف . ولكن هاملت يعود إلى الانشغال الجنسى بأمه . ويهم بأن يحذرها من الذهاب إلى فراش عمه . ثم إذا به يختار أن ينفى نفسه فى إنجلترا ، إنه يفضل ذلك النفى على أن يطيع أوامر الشبح .

الخاتمة

تتتابع الأحداث ، ولكن قرب الخاتمة يسرع هذا التتابع بشكل هائل ، وعندئذ تبرز دوافع هاملت الحقيقية بروزاً لا عهد لنا به من قبل .

تموت الملكة ، ولهذا الحادث أهمية كبرى بالنسبة لهاملت . فمن الجدير بالملاحظة أنه ينقلب بعد موتها إلى شخصية فعالة إيجابية . يصدر الأوامر ويخطو خطوات حاسمة للكشف عن المجرم فى الحال . والسبب فى ذلك أن موت أمه يقضى على مخاوفه اللاشعورية منها فيحرر قدرته على الفعل . وعلى الضد من ذلك عند ما وعد بالثأر لأبيه قرر أن يتم ذلك فى المستقبل . أى أن استجابته السريعة لمقتل أمه دليل واضح من الوجهة التحليلية على رعبه من الملكة أيام حياتها .

ويقول له لايرتس :

« ها أنت يا هاملت . هاملت ، أنت مقتول .

وليس فى العالم كله دواء يستطيع أن يفيدك .

لم يعد فيك سوى نصف ساعة من الحياة » .

ثم يعرف هاملت من لايرتس أن كلاوديوس هو السبب فى موته . هذه الإشارة بالإضافة إلى مقتل الأم تعنى إشارة سيكولوجية هامةإلى لاشعور هاملت.إنه لم يعد يخشى الموت لأنه يموت الآن فعلا . وإذاً فلن يواجهه خطر النضج إذا هو قتل كلاوديوس . وإن أمه قد ماتت وإذاً فلن يجدها أمامه عند ما يقتل كلاوديوس . لم يعد هناك ما يخشاه ، لا النضج ولا امتلاك الأم ، فليهجم على كلاوديوس إذاً . وقد هجم عليه فعلا وأصابه .

ومن الجدير بالذكر أن هاملت لا يذكر الثأر لأبيه فى هذه اللحظات . ذلك أنه فى واقعه النفسى لم يكن ينتقم لأبيه ، بل كان يقتله ، يقتل هاملت الكبير ، وهو ما أراده لاشعورياً منذ ارتقائه إلى المرحلة التناسلية . وعند ما قتله كان قد بلغ نهاية حياته ، فمات .

تلخيص : م. س.

PUBLICATIONS RECEIVED

Les Mécanismes de la Mémoire en Rapport avec ses Objets. Par Henri Wallon et Eugénie Evart-Chmielniski. Presses Universitaires de France, Paris, 1951, Pp. 117.

La Morale du Koran. Par M.A. Draz, Professeur à l'Université d'Al-Azhar. Al-Maaref Printing Press, Rue Maspéro, Le Caire, 1950. Pp. 717.

Initiation au Koran. Par M.A. Draz. Al-Maaref, Le Caire, 1950. Pp. 169.

Journal of Genetic Psychology.

The British Journal of Psychology.

The International Journal of Psycho-Analysis.

Psychological Abstracts.

Current List of Medical Literature.

Pédagogie.

Chronicle of the World Health Organization.

الكتب المهداة إلى المجلة

التأملات فى الفلسفة الأولى للفيلسوف ديكارت — ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور عثمان أمين — مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة ١٩٥١ — ٢٥٥ صفحة .

المنطق الوضعى — للدكتور زكى نجيب محمود — مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة — ١٩٥١ — ٥٣٢ صفحة

تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة عن جريدة الأهرام — للدكتور ابراهيم عبده — دار المعارف ١٩٥١ — ٥٥٢ صفحة

برج بابل — قصة تأليف الأستاذ نجيب العقيق — مزدانة برسوم للأستاذ جورج القرم — دار المعارف — ١٩٥١ — ٢٩٩ صفحة

mécanisme de l'induction aussi bien que celui de réflèxe conditionné sont des processus parcellaires insuffisants pour expliquer la totalité du comportement dans l'adaptation ou son échec. C'est au contraire le comportement total d'adaptation qui explique le sens profond des mécanismes parcellaires. C'est là une conclusion depuis longtemps établie par les travaux classiques de biologistes tels que Child, Coghill etc.

Ainsi les explications que l'auteur nous donne de certains syndromes névrotiques et psychosomatiques sont des explications parcellaires tout à fait insuffisantes pour expliquer la totalité si complexe des réactions névrotiques et psychosomatiques.

Par exemple, l'auteur explique l'impuissance sexuelle d'un malade occasionnée par l'audition d'un coup de téléphone au moment du coit par le mécanisme de l'induction négative provoquant l'inhibition des centres sexuels. Le masochisme, pour lui, s'explique, dans le cas d'un garçon qui atteint l'éjaculation à la suite d'une punition corporelle, par l'irradiation de l'excitation du centre de la douleur au centre sexuel. Quant'a l'hypertension artérielle, son explication se résume dans la séquence suivante: une forte expérience émotionnelle, produit dans le cortex un foyer d'excitations intenses qui, par induction inhibe le centre cortical du vague. Ceci ,à son tour, produit une excitation du sympathique avec accélération du cœur, constriction vaso-motrice et élévation de la tension artérielle. Si de telles excitations émotionnelles se répètent fréquemment, elle produisent, par le mécanisme des réflèxes conditionnés une hypertension durable.

Si nous faisons abstraction du caractère hypothétique de ces déductions tirées des principes, acceptés et appliqués comme seuls valables, de la dynamique cérébrale, nous devons faire remarquer que ces explications font fi des acquisitions les plus importantes dans le domaine de la recherche psychiâtrique, à savoir: le point de vue génétique et le point de vue holistique. Ce sont ces deux concepts fondamentaux qui nous ont permis d'expliquer et de comprendre la multiplicité et la complexité des facteurs qui déterminent les réactions névrotiques et psychosomatiques. C'est ainsi que les réactions de culpabilité, de besoin de punition, de la persistance des modes infantiles du comportement etc. que les études cliniques psychiatriques ont mis à jour et expliqués par l'application du point de vue génétique et holistique restent totalement sans explication si on se contente d'aborder le problème uniquement du point de vue de la dynamique cérébrale.

M. Ziwer

de comparer sa façon de voir avec celle des "subjectivistes" il serait équitable qu'il s'enquiert des caractères précis de leurs conceptions.

Examinons, pour préciser la différence entre sa conception et celle des "subjectivistes", sa façon de traiter le problème de l'hypertension artérielle. Après avoir exposé comment un stimulus tel que l'effort musculaire conduit, par induction, à l'abaissement de la tension attérielle dont l'élévation est due à un stimulus émotionnel, l'auteur s'exprime de la façon suivante: "La nature spécifique de la cause de l'hypertension est sans importance. Ce qui est essentiel, c'est que l'hypertension soit psychogène. Dans ces conditions la stimulation rivale par l'effort musculaire, abaisse par induction l'excitabilité des centres supérieurs. Comme résultat son influence sur le système nerveux végétatif diminue et la tension élevée tombe. C'est là la conclusion à tirer des données objectives et c'est le résultat de ce que j'appelle études psychosomatiques."

Eh bien, pour nous autre "subjectivistes" la nature spécifique de la cause psychologique de l'hypertension a une importance capitale, et c'est la raison d'être de la discipline psychosomatique. Car enfin les études expérimentales et cliniques qui prenaient en considération l'émotion en tant que facteur pathogène ne manquaient pas. Ce qui manquait c'était justement l'étude systématique de la nature précise de l'émotion. En d'autres termes, là pour nous, la médecine psychosomatique ne cherche point à minimiser l'étude du "soma", mais cherche à intensifier l'étude du "psyché". Or, de toute évidence, l'émotion est une réaction globale de l'organisme dans une situation inter-humaine donnée. Elle est par consquent une donnée objective de l'expérience qui peut et doit être étudiée scientifiquement. Elle est un processus qui se déroule dans l'organisme et ne diffère des autres processus physiologiques que par le fait qu'elle est susceptible d'être perçue par le sujet en cause. Or, dans l'état actuel de nos connaissances, le processus qui constitue l'émotion est inabordable par les moyens habituels de l'expérimentation physiologique. Force nous est donc de l'aborder par son côté subjectif.

La question maintenant est de savoir si cette étude subjective remplit les conditions requises par une étude scientifique, si elle est scientifiquement valable. De la réponse à cette question dépend la légitimation de tous les travaux de la psychologie en tant que science. C'est là une question depuis longtemps soulevée et résolue par de nombreux travaux méthodologiques.

Rappelons que notre voeu, qui était celui de Freud, demeure toujours de pouvoir traduire en termes physiologiques les découvertes psychologiques. Il reste maintenant à savoir si les mécanismes décrits par l'auteur sont susceptibles de satisfaire à cette condition. Or, de toute évidence, les

PSYCHOGENESE DES MANIFESTATIONS SOMATIQUES

Allocution du

Dr. M. Ziwer

Au Congrès International de Psychiatrie — Paris 1950

Après tant d'intéressantes communications, que nous venons d'entendre, et étant le dernier à prendre la parole, j'ai pensé qu'il serait peut-être plus conforme à l'esprit de ce Symposium de terminer par une discussion. Vu le peu de temps dont je dispose, je me propose de discuter seulement la communication de M. Ischlondsky.

L'auteur nous expose ses travaux sur deux mécanismes cérébraux l'induction et ce qu'il appelle la jonction corticale temporaire dans leurs lrapports avec les manifestations somatiques. En tant que contribution à d'investigation du "versant somatique", cette communication nous apporte ties vues intéressantes au même titre que les travaux sur les réflèxes condijoonnés que l'auteur considère d'ailleurs comme un cas particulier de la vanction corticale temporaire. Il ne nous appartient pas de juger de la réfileur de ces travaux du point de vue de la neurophysiologie ou de la qu'éxologie. Si nous avons choisi de discuter cette communication, c'est sonelle' soulève des questions de principe et de méthodologie générale qui t à la base même de la recherche psychosomatique.

Lauteur, dès le début, insiste sur la nécessité d'étayer toute recherche psychosomatique par l'étude des mécanismes cérébraux au moyen desquels les facteurs psychiques produisent des perturbations physiques. Et tout au long de sa communication l'auteur compare les études psychosomatiques du point de vue de la dynamique cérébrale (par l'étude des mécanismes cérébraux) avec le point de vue "subjectiviste" terme par lequel il désigne les études psychiâtriques, psychanalytiques et psychologiques en général De cette comparaison, l'auteur conclut qu'il ne s'agit pas là d'une simple différence de terminologie mais bien de deux conceptions différentes de l'esprit et de l'objet d'étude. Sur ce point, nous sommes parfaitement d'accord avec lui.

L'auteur a certainement le droit d'avoir une conception personnelle de la discipline psycho-somatique. Toutefois, du moment qu'il entreprend

cependant celle-ci: la sémiotique doit avoir une situation analogue à celle qui est reconnue aujourd'hui à la théorie de l'énergie atomique dans les sciences de la matière et de la vie. Admettons que toute science, quelle qu'elle soit, a pour objet des comportements, en donnant à ce mot le sens très général de manifestation de réalité. Il y a deux types généraux de comportements, — les comportement naturels et les comportements "significatifs", c'est-à-dire où la réalité n'est pas simplement ce qu'elle est, objectivement considérée. L'opposition du *naturel* et du *significatif* doit remplacer celle de la matière et de l'esprit, ou celle de la nature et de la culture. Et une telle opposition est d'autant plus légitime qu'elle est le résultat d'un mouvement intérieur propre à la pensée scientifique actuelle.

Edouard Morot-Sir
Professeur de Philosophie à
l'Université Fouad 1er.

ou moins fortement présent derrière les autres langages, car le formalisme et la systématicité sont deux tendances propres à la vie des signes, quels qu'ils soient.

On comprend à partir de ces deux exemples l'intérêt de la classification de Morris comme point de départ pour des analyses linguistiques: la principale fonction de la sémiotique aujourd'hui réside dans cet essai de classification des signes et tout spécialement de ces signes humains appelés langages.

Signalons enfin un problème capital que la linguistique jusqu'à présent n'a jamais traité que de biais: celui des conditions individuelles ou sociales de l'apparition des signes. Un signe n'a pas simplement une signification par lui-même; cette signification appartient aussi à un contexte: elle est liée d'abord à l'histoire personnelle des individus qui se servent des signes; ensuite elle est au cœur même des relations qui se tissent chaque jour entre les hommes. — La théorie du langage de George Mead est une des hypothèses les plus fécondes dans ce domaine où interfèrent la linguistique, la psychologie et la sociologie. On consultera avec profit son ouvrage: *Mind, Self and Society* (University of Chicago, 1934). En résumé, la sémiotique est la science générale des signes, — peu importe que ces signes soient d'origine animale ou humaine, — qu'il s'agisse de signes dans un langage ou de signes sans langage, — que ces signes soient vrais ou faux, adéquats ou inadéquats, normaux ou anormaux. Son objet, — le signe, est à la fois le plus original et le plus général;—le plus original, puisque le signe n'est pas l'élément constituant un domaine bien défini dans un monde objectif, à la manière dont les objets des autres sciences designent une région du monde; — le plus général, puisque les autres sciences, comme systèmes de signes, appartiennent au domaine de la sémiotique parmi tous les modes et usages de signes.

En nous plaçant à un point de vue épistémologique, nous dirons que la sémiotique répond à un besoin d'unité dans tout un champ immense de la science contemporaine, qui jusqu'à présent n'avait pas encore trouvé son centre de recherches. Depuis un demi-siècle, philosophes, psychologues, historiens, sociologues tentent de définir leur originalité en face des sciences de la nature. Diverses expressions ont été lancées: on a parlé de "sciences de l'Esprit", de "sciences de la Civilisation", de "sciences de la culture", de "théorie des valeurs". Mais aucun de ces efforts n'a abouti à la formation d'une science qui à la fois unifie toutes ces recherches si voisines qu'elles empiètent sans cesse les unes sur les autres, et les distinguent nettement de l'ensemble formé par les sciences de la nature. Les analogies sont dangereuses à manier dans ce domaine d'évolution des sciences. Nous risquerons

longuement et avec beaucoup de soin. — je me bornerai ici à donner quelques exemples — Le langage scientifique resulte, d'après la classification de Morris, de la conjonction des deux exigences de désignation et d'information. L'intention de la science est bien de se limiter au mode désignatif de la signification: elle substitue en effet les signes proprement numériques aux quantifications vagues du langage ordinaire; elle développe une machinerie instrumentale qui augmente le degré de confirmation des énoncés et permet de distinguer, parmi des énoncés quelconques, ceux qui désignent et ceux qui ne désignent pas. Et, pour parachever cette œuvre de désignation et d'information, la science s'adjoint le langage logique qui a un usage d'information comme la science, mais est formel et non désignatif. — Le langage métaphysique, nous dit Morris, est formel et systématique. Voici pourquoi: on le confond souvent avec le langage cosmologique lui aussi systématique, mais désignatif et non formel. Une proposition métaphysique se caractérise par sa très haute généralité, et encore par le fait qu'elle n'est ni vérifiable ni réfutable à l'aide des procédés habituels de la science. "Une chose ne peut à la fois être et ne pas être", "le devenir est de l'essence du mal", "le devenir est la condition de tout progrès vers le Bien", voilà des énoncés typiquement métaphysiques; et ceux qui prononcent de telles phrases refusent le plus souvent de s'incliner devant les déclarations de la science qui semblent les contredire; ou même ils interprètent ces déclarations de telle sorte que l'incompatibilité disparaît. Cette situation révèle le mode et l'usage de la métaphysique. Ses énoncés doivent servir d'"organisateurs" par rapport à toute espèce de phrase. Ainsi, un homme qui désapprouve les changements sociaux, qui n'aime pas l'instabilité psychologique de certains caractères humains, qui redoute le désordre sous tous ses aspects, organisera toutes ces appréciations autour de la phrase: "le devenir est de l'essence du mal" Cette organisation linguistique est telle qu'elle évite toute surprise à ses interprètes: la métaphysique est l'art de ne pas être en contradiction avec les expériences que l'homme peut faire. Admettons même l'existence d'un discours métaphysique basé sur de assertions contradictoires: ce serait la suprême habileté du langage métaphysique! car la technique qui consiste "à se préparer à être toujours surpris" est encore une stratégie de stabilisation dans un monde plein de surprises. Bref le langage métaphysique donne aux conduites humaines une unité générale qui se manifeste d'abord dans les signes de ce langage; et il y a plusieurs types d'unités qui correspondent à diverses constantes psychologiques et sociales. — Cette analyse sémiotique n'est pas une condamnation de la métaphysique; elle la situe par rapport à tous les autres langages: il apparaît nettement qu'un tel langage est plus

seize possibilités de langages, chacune bien déterminée dans sa signification et sa fonction. — Un esprit tant soit peu critique trouvera sans doute étonnante une telle concordance entre le mode et l'usage d'un signe: quatre de chaque côté précisément: Comment ne pas soupçonner l'artifice ? Comment ne pas dénoncer le caractère formel d'une telle classification ? On procède *a priori* et on redécouvre miraculeusement toute la réalité linguistique. Ces réserves sont valables et il faut les avoir présentes à l'esprit. Mais leur poids n'est pas suffisant pour qu'elles incitent à rejeter la classification proposée par Morris. Au contraire! Si nous la présentons ici, c'est parce que nous estimons qu'elle pourrait servir de base solide de départ pour des analyses plus serrées et plus fines. De plus, il faut bien que maintenant les nouveaux savants des sciences de l'homme s'y résignent: le temps est passé où ils pouvaient se donner la joie orgueilleuse de refaire à eux seuls toute la science dans laquelle ils s'étaient spécialisés; il faut suivre une tradition, si neuve soit-elle: voilà l'esprit scientifique qu'il convient d'miter, et non je ne sais quel positivisme trop étroit. En bref, la tentative de Morris est, dans ce domaine des classifications des langages et des fonctions sémiotiques, la plus heureuse, parce qu'elle est la plus riche en possibilités de travail pour ceux qui suivront cette voie.

Voici les résultats et les langages définis par la combinaison du mode de signification et de l'usage d'un signe:

est à	la	fois	désignatif	et	informatif	le	langage	scientifique,
,,	,,	,,	,,	,,	évaluatif	,,	,,	fictif,
,,	,,	,,	,,	,,	incitif	,,	,,	légal,
,,	,,	,,	,,	,,	systématique	,,	,,	cosmologique,
,,	,,	,,	appréciatif	,,	informatif	,,	,,	mythique,
,,	,,	,,	,,	,,	évaluatif	,,	,,	poétique,
,,	,,	,,	,,	,,	incitif	,,	,,	moral,
,,	,,	,,	,,	,,	systématique	,,	,,	critique,
,,	,,	,,	prescriptif	,,	informatif	,,	,,	technologique,
,,	,,	,,	,,	,,	évaluatif	,,	,,	politique,
,,	,,	,,	,,	,,	incitif	,,	,,	religieux,
,,	,,	,,	,,	,,	systématique	,,	,,	propagandiste
,,	,,	,,	formel	,,	informatif	,,	,,	logico-mathématique,
,,	,,	,,	,,	,,	évaluatif	,,	,,	rhétorique,
,,	,,	,,	,,	,,	incitif	,,	,,	grammatical,
,,	,,	,,	,,	,,	systématique	,,	,,	métaphysique.

Chacune de ces interprétations de langages dont nous observons l'existence dans les langages civilisés demanderait assurément à être commentée

Il y a quatre modes de signification possibles pour un signe quelconque: ce sont les modes désignatif, appréciatif (*appraisive*), prescriptif et formel (*formative*). L'analyse de Morris se situe toujours à l'intérieur de la relation individu-milieu, qui est le schéma fondamental de la sémiotique. Ainsi les mots de celui qui nous parle peuvent *désigner* une certaine condition propre à la route dans laquelle nous devons nous engager; ils peuvent aussi *apprécier* cette condition comme un obstacle par rapport à notre intention d'atteindre un point bien déterminé de cette route; les signes ensuite peuvent *prescrire* une certaine conduite par rapport à l'obstacle, un changement d'itinéraire par exemple. Dans le cas du schéma "chien-cloche-nourriture", le son de la cloche *désigne* la nourriture située en un certain endroit, el *apprécie* ensuite cette nourriture en relation avec la faim et enfin il *prescrit* une action-réponse. — Mais le langage humain comprend encore des "signes logiques" dits "signes formels"; tels sont les signes "ou", "et", "si", "est", "+", — tels sont les suffixes, les signes grammaticaux, les procédés de ponctuation, etc. Ces signes ont, dans tout langage complexe, une fonction de signification bien définie qui se distingue nettement des trois autres modes précédents. On parlera alors d'un mode *formel* des signes ou encore de signes qui sont "*formateurs*" (*formator*, écrit Morris). Peu importe ici le terme choisi pour désigner ce nouveau mode de signification; l'essentiel est d'avoir reconnu son originalité.

Face aux quatre modes de signification nous trouvons quatre variétés d'usage. La fonction pratique des signes est une fonction de contrôle du comportement. Pour atteindre ce but, un être vivant et tout spécialement l'homme doit d'abord tenir compte du milieu où il va agir; ensuite il doit choisir certains traits caractéristiques de ce milieu, puis envisager les réponses qui permettront de satisfaire ses propres besoins; enfin il s'efforcera d'organiser l'ensemble des réponses de son action à l'intérieur d'un cadre, d'une forme cohérente et unifiante. Or il apparait immédiatement que ces divers aspects de l'adaptation de l'individu à un milieu peuvent être facilités par l'intervention de signes qui auront donc une fonction d'usage propre à l'une des quatre nécessités d'adaptation. Les quatre usages du signe vont se déduire aisément. Un signe peut servir à renseigner quelqu'un sur le milieu où son action doit se dérouler, — à faciliter le choix qu'il a à faire, — à provoquer la réponse la plus utile, — enfin à organiser l'ensemble des signes précédents dans une totalité sémiotique. Morris désigne ces quatre usages par les termes suivants que nous donnons dans l'ordre des définitions précédentes: un signe sera dit *informatif*, *évaluatif*, *incitif* et *systématique* (*systemic*).

Et maintenant il suffit de faire un tableau à double entrée et on obtient

III.

Du côté de la psychologie les résultats sont plus décisifs et la sémiotique a ainsi prouvé qu'elle répondait à un besoin actuel de la science. — Les deux livres de Charles Morris, "*Foundations of the Theory of Signs*" (Chicago, 1938), — "*Sign, Language and Behavior*" (New York, 1946) constituent les efforts les plus importants pour dégager et classer les notions fondamentales de la sémiotique. — Voici d'abord la définition objective du signe: si A est un stimulus préparatoire tel que, en l'absence d'objets-stimulus provoquant des séquences de réponses appartenant à une certaine famille de comportement, il suscite dans un organisme une disposition à répondre par les séquences de réponses adaptées à cette famille de comportement, — alors A est un signe; A sera par exemple la cloche, dans la célèbre expérience de Pavlov. — Procédons maintenant à l'analyse du signe. On appelle *significatum* l'ensemble des conditions grâce auxquelles le signe a un pouvoir de dénotation; le *denotatum* est le "quelque chose" qui permet le développement d'une sequence de réponses à laquelle un certain interprète est disposé: dans le cas du chien de Pavlov, la nourriture est le *denotatum* du son qui est le signe d'une cloche. — Parmi les signes, le langage est un groupe de signes pluridimensionnels qui sont communs à une famille d'interprètes; ces signes sont produits par les membres de cette famille, et ils se combinent entre eux de manière à former des signes composés; ces combinaisons de signes obéissent à des lois strictes; c'est ce caractère combinatoire qui permet de différencier le langage humain du langage animal.

Selon Morris, les signes du langage humain peuvent être considérés sous deux points de vue,—celui de leur signification et celui de leur usage. La réunion de ces deux points de vue permet alors de définir des "types de discours" ou langages spécialisés qui existent parfois à l'état pur et forment en conséquence une unité sémiotique originale, mais qui aussi peuvent coexister à l'intérieur du langage de la vie quotidienne où se mêlent presque simultanément les significations et les usages les plus divers. Une classification des langages correspond donc à une purification du langage ordinaire d'où se dégagent des "types" simples et unifiés de signes employés par les hommes. Morris propose de réunir les avantages que donnent les classifications qui se basent tantôt sur la différence de signification des signes et tantôt sur leur différence d'usage. Ce qui revient à admettre que tout langage a à la fois un *mode* dominant de signification et une fonction primaire relative à son *usage*.

pragmatique. Selon Carnap, qui est ici suivi par les logiciens formalistes, cette pragmatique ne comprendra qu'une seule section et restera purement descriptive: elle aura à résoudre des problèmes physiologiques, ethnologiques, psychologiques, psycho-sociologiques: elle ne pourra jamais se constituer en théorie pure et formelle de la relation entre un sujet ou un groupe de sujets et des signes ayant pouvoir de signification.

Dans l'état actuel des recherches, divers problèmes qui commandent les sections descriptives des trois parties de la sémiotique ont été déjà traités par la linguistique, la psychologie et surtout la psychologie sociale. Le moment est venu où il faudrait rassembler ces résultats de manière à fournir à de nouveaux chercheurs une documentation unifiée et une base de départ suffisamment stable. Charles Morris a tenté cette première synthèse. Mais, avant de présenter ses travaux, il faut faire le point par rapport aux logiciens qui se sont réservés le droit de constituer une sémiotique pure. — La syntactique pure correspond aux études entreprises depuis un siècle par la logique formaliste, en tant qu'elle se limite au calcul propositionnel, à la théorie des fonctions propositionnelles, à l'analyse des schémas de déduction, à la logique des combinateurs: on trouvera dans l'ouvrage de Carnap, que nous avons déjà signalé, l'indication des changements que la perspective sémantique introduit dans l'ancienne syntaxe logique du langage (cette syntaxe en effet confondait en un seul tout la syntactique et la sémantique). La sémantique pure en est à ses premiers tâtonnements; elle n'est pas encore parvenue à formuler clairement ses concepts et ses problèmes fondamentaux. Après son *Introduction*, Carnap a publié en 1947 une nouvelle étude intitulée: *Meaning and Necessity*, où il examine les concepts de classe et de propriété en leur appliquant une nouvelle méthode d'analyse dite méthode d'extension et d'"intension". Il convient aussi de renvoyer à plusieurs articles du logicien américain H.B. Curry: en particulier, Languages and Formal Systems (Proceedings Tenth International Congress of Philosophy); Language, Metalanguages and Formal Systems — (Journal of Symbolic Logic); L-semantics (Congrès de Philosophie des Sciences, Paris, 1949). — Il est difficile de porter un jugement definitif sur ces ébauches. Mais un fait est indiscutable: elles réintroduisent les préoccupations et problèmes de la logique traditionnelle et de la logique moderne, — préoccupations que Carnap et ses disciples croyaient périmées il y a vingt ans; une théorie de la signification d'un système de signes rejoint nécessairement une théorie des catégories ou une logique transcendentale ou une logique dialectique. Mais n'anticipons pas. Des concepts anciens sont toujours rajeunis lorsqu'ils sont intégrés dans une nouvelle manière de poser les problèmes auxquels ils sont référés.

Sous l'influence de l'Ecole de Varsovie, et tout spécialement de Kotarbinski et de Tarski, les logiciens, depuis une vingtaine d'années, ont découvert que la syntaxe logique n'était qu'une partie d'une science générale des signes. Ils empruntèrent à Charles Morris le mot de "sémiotique" pour désigner cette science des signes et ils entreprirent de fixer les concepts fondamentaux de la nouvelle discipline. Ils se trouvaient alors engagés dans une lutte d'influence avec les psychologues qui eux aussi allaient réclamer pour leur propre compte l'étude objective des signes.

Voici d'abord le programme de travail fixé par les logiciens. On en trouve une excellente mise au point dans le livre de Carnap "Introduction to Semantics" (1942). — Les signes doivent être répartis en deux groupes: les *signes cognitifs* qui ont une fonction d'information et les *signes non-cognitifs* qui sont d'origine émotionnelle et ont une fonction d'appel. La logique ne s'intéressera qu'aux premiers; les autres sont abandonnés au psychologue. — L'analyse objective du signe cognitif aboutit aux résultats suivants. Observons un organisme, un être humain par exemple, qui émet un son, fait un geste, ou utilise tout autre procédé, de manière à faire connaître une situation, un objet. Une telle conduite se décompose ainsi: un être producteur de signes, — une manifestation sémiotique considérée en elle-même, c'est-à-dire le signe lui-même, — enfin une opération de désignation qui relie le signe à un événement quelconque. De là se tirent aisément les trois grandes parties de la sémiotique: la *syntactique* qui étudie tout signe ou ensemble de signes abstraction faite du processus de désignation et de la présence d'un producteur de signes; cette première partie de la sémiotique se divise elle-même en deux sections: l'une, descriptive, est l'étude des syntaxes historiquement données, l'autre, pure et logique, est l'analyse des règles de formation et de dérivation syntaxiques pour un langage quelconque; c'est elle qui a été spécialement explorée jusqu'à présent par le formalisme logique. — Ensuite la *sémantique* prend en considération la valeur signifiante des signes, mais en dehors même de l'intervention du sujet, donc sans tenir compte des réactions personnelles et émotionnelles provoquées par la production ou la réception des signes. Comme la syntactique, la sémantique comprendra une partie descriptive, celle qui revient au linguiste, et une partie pure qui sera l'œuvre du logicien et établira les conditions et règles de signification à l'intérieur d'un système de signes. — Enfin la *pragmatique* étudiera le jeu des interactions complexes qui s'établissent entre un ou plusieurs sujets et des signes: par exemple, l'examen des procédés dont les savants se servent pour enregistrer et communiquer des résultats d'expériences relèvera de la

la réalité, fournit les "instruments de manipulation" des propositions empiriques. Comme le dit Carnap, la théorie des propositions analytiques est la formulation des comportements syntactiques possibles.

Une théorie logique du langage est aussi une théorie de la vérité comme valeur de ce langage. D'après la classification précédente des propositions, il y aura des vérités formelles et des vérités de fait. Le critère général de vérité est la *clarté*. La clarté des proposotions analytiques est l'effet obtenu par la cohérence d'un *développement déductif* à partir de définitions par postulat. La clarté des propositions empiriques est la conséquence du *processus de confirmation*. Précisons à ce propos qu'il ne s'agit pas de la confirmation d'une proposition hypothétique par une expérience, mais, — et Carnap le soulignait fortement au Congrès International de Philosophie des Sciences de 1935, de la confrontation réciproque de propositions empiriques:on ne compare pas une proposition et un fait, car on ne compare pas deux choses qui n'appartiennent pas au même univers! Quand on parle, — et on le fait souvent, de la confirmation d'une proposition par un fait, on confond deux opérations: l'une qui est la formulation d'une observation, et l'autre qui est la confrontation de propositions empiriques issues d'observations diverses.

En résumé, la théorie logique du langage, telle qu'elle apparaît à travers les premiers travaux des écoles de Vienne et de Varsovie est parvenue aux résultats suivants : un langage vrai ou science est un ensemble de propositions analytiques encadrant des propositions empiriques; cet ensemble est clair pour la pensée, à condition que soient respectés les deux critères du vrai: la cohérence et la confirmation; de plus, cet ensemble, quoiqu'il enferme des termes apparemment hétérogènes désignant les univers particuliers de la physique, de la biologie, de la sociologie, de la psychologie, etc. peut être finalement unifié à l'intérieur d'une classe unique et homogène de termes appartenant au langage objectif de la physique.

Telle est la première grande étape qui devait conduire à l'idée d'une théorie générale des signes.

II.

Les améliorations apportées à la problématique précédente et à ses résultats sont venues de deux côtés: d'abord d'une critique interne de la théorie logique du langage, — ensuite d'un effort pour constituer une psychologie positive et objective des langages: on a pris alors conscience de la profonde parenté d'esprit qui rapprochait ainsi les logiciens formalistes et les psychologues behavioristes.

THE EGYPTIAN
JOURNAL OF PSYCHOLOGY

Vol.VII June — September 1951 No 1

UNE NOUVELLE SCIENCE : LA SEMIOTIQUE

Par

Edouard Morot-Sir
Professeur de Philosophie à l'Université Fouad 1er — Le Caire

I.

Pour comprendre la signification et la portée de la sémiotique, — c'est-à-dire de la théorie générale des signes, il est d'abord indispensable de la référer à son point de départ, qui est logique. La sémiotique en effet n'est pas simplement l'extension des études que l'on groupait au début de notre siècle sous le dénomination de linguistique générale; elle se situe dans le prolongement des recherches critiques que les logiciens poursuivent depuis 1850 sur le langage, sa structure et ses lois.

Une logique est nécessairement une théorie de la science. Avec l'Ecole de Vienne et les écoles voisines, — en particulier l'Ecole de Varsovie, la logique est devenue la théorie de la science comme langage. Ce langage est encadré et dirigé par une syntaxe pure qui se distingue nettement des syntaxes particulières, spécifiques de telle ou telle langue écrite ou parlée à l'intérieur d'un groupe social déterminé. Le logicien a ainsi pour fonction de mettre à jour cette syntaxe pure qui est faite de règles universelles. Ceiles-ci se répartissent en *règles de formation* qui commandent les réunions de mots en propositions, et en *règles de transformation* qui permettent les liaisons entre propositions et organisent un univers du discours. — Les propositions elles-mêmes sont de quatre types possibles: analytiques et vraies, contradictoires et fausses, empiriques et vraies, empiriques et fausses. Les propositions analytiques, dites encore tautologiques ou "vraies quel que soit leur contenu", sont les liaisons *a priori* dégagées par la syntaxe pure et ont pour domaine propre la logique et les mathématiques. Toute proposition synthétique, c'est-à-dire qui n'est pas purement formelle, est empirique, et elle est toujours référée à un certain "état de choses", à une situation. Bref une science est une coordination de propositions analytiques et de propositions empiriques. Plus précisément, la logico-mathématique, qui se constitue comme un univers de signes en dehors de

FOPEX

THE EXPORT DIVISION OF SIXTY ASSOCIATED MAKERS OF SCIENTIFIC INSTRUMENTS, LABORATORY EQUIPMENT, OPTICAL PRECISION & EDUCATIONAL APPARATUS

Established in Paris
61, Rue de Malte

FOPEX
EGYPT

Departments :
Instruments & Apparatus for :

1
Photography
Projection
Cinema
Films & Papers

2
Optical goods
Medical Glasses
Field Binoculars

3
Surveying & Levelling
Astronomy
Meteorology
Design
Teaching Sciences.

4
Scientific Research
Spectrography
Photometry
Microscopy
Centrifuges
Ovens, Autoclaves
Glassware, Porcelain, Quartz
Complete Laboratory Equipment.

5
Testing of Materials & Metals
Metallurgical examination
Industrial Controls

6
Electrical measures
Electronics

7
Pressure, Heating & Flow Controls
Pyrometry

8
Fine Chemicals Reagents, Stains

9
Dentistry
Surgery
Radiology

Amongst the wide range of its Products FOPEX is pleased to illustrate in this issue of the Egyptian Journal of Psychology :

ERGOGRAPH
Made by the Specialised Firm
ETABLISSEMENTS D'APPLICATIONS PSYCHOTECHNIQUES (Paris)

Specification for Psychotechnical & Physiological Apparatus & planning of complete Laboratories up to standard international specifications available on request.

If you are interested in one of the above lines please apply to
DAR AL MAAREF
5, Maspero Street — Telephone 49868 — CAIRO

منشورات جماعة علم النفس التكاملى

ظهر حديثاً :

الأسس النفسية للإبداع الفنى
فى الشعر خاصة

بقلم

مصطفى سويف
ماجستير فى علم النفس
جامعة فؤاد الأول

فتح جديد فى تطبيق علم النفس والتحليل النفسى فى دراسة أهم مشكلة من المشكلات التى تثيرها دراسة الآثار الفنية فى الأدب ألا وهى مشكلة الإبداع الفنى . عرض تحليلى نقدى للنظريات السيكولوجية الكبرى التى تناولت الموضوع . دراسة تجريبية مبتكرة لنفسية بعض الشعراء الشرقيين والغربيين : أحمد رامى — عادل الغضبان — محمد الأسمر — خليل مردم — رضا صافى — شلى — كيتس — بايرون وغيرهم وغيرهم . البحث الذى نال جائزة المغفور لها الأميرة شيوه كار للبحوث النفسية فى جامعة فؤاد .

قدم البحث بمقدمة قيمة الأستاذ الدكتور يوسف مراد أستاذ علم النفس بجامعة فؤاد . والبحث فى أكثر من ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير . وهو مزود بعدد من اللوحات من النحت اليونانى . كما أنه يحتوى على صور لمسودات الشعراء مطبوعة بالزنكوغراف .

الثمن ٥٠ قرشاً

منشورات جماعة علم النفس التكاملى

المنشأة برعاية المغفور لها الأميرة شيوه كار

يشرف على إصدارها الأستاذ الدكتور يوسف مراد

ظهر منها :

علم النفس الفردى : أصوله وتطبيقه تأليف الأستاذ إسحق رمزى
الثمن ٣٥ قرشاً

مشكلة السلوك السيكوباثى تأليف الدكتور صبرى جرجس
الثمن ٤٥ قرشاً

مبادئ علم النفس العام تأليف الدكتور يوسف مراد
الثمن ٥٠ قرشاً

مدارس علم النفس المعاصرة تأليف روبرت ودورث وترجمة
الأستاذ كمال دسوقى .
الثمن ٥٠ قرشاً

الأسس النفسية للإبداع الفنى تأليف الأستاذ مصطفى سويف
الثمن ٥٠ قرشا

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

أجهزة تكييف هواء

إنتاج جنرال الكتريك

خبراء للقيام بكافة التركيبات

العبرة بقلب الجهاز

للمنازل
للمكاتب
للفنادق
للكازينوهات
للمستشفيات
للمؤسسات الصناعية
للمحال التجارية

الوكلاء الوحيدون

شركة إيسترن للكهرباء

عمارة اسكورريال بمول ٣٣ شارع عبد الخالق ثروت بالمنشاة ٧٨٠٦٠ ٧٨٠٦٩

أكثر شركات الطيران رعاية لمصالحكم

من القاهرة الى	أثينا	— ,٢١	جنيه
,,	روما	— ,٤١	
,,	ميلان	— ,٤٧	
من القاهرة الى	بنغازى	١٨,٥٠٠	
,,	طرابلس	٣٠,٤٠٠	
,,	تونس	٣٨,٥٠٠	

السعيدة

الخطوط المصرية للطيران الدولى

٣٧ شارع عبد الخالق ثروت باشا بالفجالة ٤٩٤٤٦ - ٥٨٥٨٥

المال عصب الحياة ..

لكم

على كل افراد العائلة بدون استثناء أن يجربوا حظهم فالمال عصب الحياة للجميع

اشتروا تذاكركم فى يانصيب السباق الأكثر ضمانا ومزايا

ولهم

الجائزة الأولى لا تقل عن

٥٠٠٠ جنيه مصرى على الأقل

هبة محمد على الكبير وجمعية المرأة الجديدة
ويوم المستشفيات ومدينة فاروق الأول الجامعية

ثمن التذكرة
٢٥ ص

التذاكر تباع فى كل مكان ومن مكاتب البريد وفروع بنك مصر بالقاهرة والمحافظات

السحب ١٤ يونيو بدار الحكمة بالقاهرة
السباق ١٧ » بنادى سباق سيوة تنيج

المكتب الرئيسى للبيع والتوزيع / ٢٦ شريف باشا بعمارة اميوبليا ت ٥٦٠٦٧

بيبسى كولا
PEPSI-COLA
بيبسى كولا
متعة الصيف!
SPMO

مجلة علم النفس

تصدرها جماعة علم النفس التكاملى

المنشأة برعاية المغفور لها الأميرة شيوه كار

ثلاث مرات فى السنة (فى منتصف يونيو وأكتوبر وفبراير)

رئيسا التحرير : الدكتور يوسف مراد والدكتور مصطفى زيور

سكرتير التحرير : مصطفى سويف ٤ شارع الجبيبى — الدقى — القاهرة

الاشتراك : ٥٠ قرشاً فى السنة فى مصر و ١٤ شلن فى الخارج أو ما يعادل هذه القيمة فى سوريا ولبنان . ترسل الاشتراكات إلى سكرتير التحرير الأستاذ مصطفى سويف .

الإدارة : الدكتور يوسف مراد ، صاحب مجلة علم النفس ٤٨ شارع الأميرة فادية (فتحية سابقاً) العجوزة ـ مدينة الأوقاف — مصر — ت. ٧٨٦٤٢

ثمن النسخة ٢٠ قرشاً

THE EGYPTIAN JOURNAL OF PSYCHOLOGY

Issued by the Society of Integrative Psychology

Founded under the Patronage of the Late Princess Chiekkiar

JUNE - OCTOBER - FEBRUARY

EDITORS : Youssef Mourad, Docteur ès-lettres ; Mostapha Ziwer M.D.

SECRETARY : Mostapha Ismai'l Soueif, M. A.

ANNUAL SUBSCR. : Egypt : P. T. 50-Foreign Countries 14.

DIRECTION : Dr. Youssef Mourad, Amira Fadia, al-Agouza, Cairo, Egypt.

اشترك فى مجلة

الأديب

- مدرسة حية تنشر أحدث النظريات فى الأدب العربى
- تطلعك على أهم الأبحاث العلمية فى العالم
- تلخص لك آخر الأنباء الثقافية والسياسية
- يساهم فى تحريرها أشهر كتاب العالم العربى

بقراءتك شهريا

للأديب

تتصل فكريا بجميع العرب فى الشرق العربى والمهجر

منشىء المجلة : ألبير أديب ص . ب ٨٧٨ بيروت لبنان

مراسل الأديب فى مصر : الأستاذ وديع فلسطين

بجريدة الفطم ـ مصر

مطبوعات فى علم النفس والتربية

ص

٥٠ مبادئ علم النفس العام
للدكتور يوسف مراد

٣٥ علم النفس الفردى
للأستاذ إسحق رمزى

٣٠ مشكلات الأطفال اليومية
تأليف ثوم وترجمة وتعليق الأستاذ إسحق رمزى

٣٠ نظرية الإدراك الحسى عند ابن سينا
للأستاذ محمد عثمان نجاتى

٤٠ التربية وطرق التدريس
للدكتورين عبد العزيز عبد المجيد وصالح عبد العزيز شحاته

٢٠ الأزمات الزوجية وعلاجها
للدكتور محمد زكى شافعى بك

٥٠ مدارس علم النفس المعاصرة
تأليف وود ورث وترجمة الأستاذ كمال دسوق

٢٠ القصة فى التربية
للدكتور عبد العزيز عبد المجيد

٤٠ مشكلة السلوك السيكوباتى
للدكتور صبرى جرجس

٣٠ مقدمة فى التحليل النفسى
للأستاذ إسحق رمزى

٥٠ الأسس النفسية للإبداع الفنى ـ فى الشعر خاصة
للأستاذ مصطفى سويف

مندوب الصيع والنشر
دار المعارف بمصر

THE EGYPTIAN
JOURNAL OF PSYCHOLOGY

Vol VII | June-September 1951 | No. 1

EDITORS

Y. MOURAD, Dr. ès Let. & M. ZIWER M. D.

Une Nouvelle Science : La Sémiotique ... ... **E. Morot-Sir**
Psychogenèse des Manifestations Somatiques ... ... **M. Ziwer**

ARABIC SECTION

Difficult Parents ... ... **M. Ziwer**
Family and its Social Function ... ... **A. Ezzat**
Influence of Parents-Child Relationship on the Future Marriage of the Child* ... ... **K. Nayel**
Psychopathology of Magic and Omen ... ... **N.Y. Badawi**
Unconscious and Parents-Child Relationship ... **F.A. Kamel**
Gestalt Theory ... ... **M. Soueif**
Loss of Consciousness and Impulsive Behavior ... **A. El-Meligui**
Reviews — Readings in Scientific Literature

**Brief Summary in French*

P.T. 20

AL-MAAREF
PRINTING AND PUBLISHING HOUSE
CAIRO.